من الشرق والغرب

نظرات استشراقية في الإسلام

تأليف الدكتور محمد غلاب

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

من الشرق والغرب

نظرات استشراقية في الإسلام

تأليف
الدكتور محمد غلاب

مقدمة

مما لا سبيل الى الارتياب فيه ان العالم الاسلامى يشغل اليوم مكانة دولية هامة بل رفيعة ، لأن كثيرا من دوله أعضاء فى الجمعيات العالمية للسلام والثقافة والفن والعمل ، وهذا كله يقتضى أن يكون المسلمون على علائق متينة وصلات قوية واحتكاكات دائمة ومذاهب اجتماعية واقتصادية تلتئم مع دينهم ومذاهبهم حينا ، وتختلف احيانا اختلافات تتفاوت كثرة وقلة .

ولكى تكون تلك الاحتكاكات مخصبة . ومن ثم مفيدة للانسانية ـ يجب أن يكون الاسلام بمبادئه وتعاليمه مفهوما فهما كاملا أو فهما أدنى الى الكمال على أقل تقدير لدى تلك الأمم التى شاءت طبيعة العصر الراهن أن يرتبط كل منها بالأخريات ارتباطا وثيق العرى متين الوشائج ، وأن تتبادل الآراء والأفكار والعلوم والفنون والثقافات فضلا على المناهج والمعاملات والتعاونات الصحية والاقتصادية .

ولما كان الطريق الوحيد الذى تسلكه المبادىء الاسلامية للتغلغل فى أصقاع الغرب هو طريق مؤلفات المستشرقين .

ولما كانت الشعوب الغربية وحكوماتها تصدر أحكامها على الاسلام على حسب الصور التى يبرزه فيها المستشرقون من جهة ، وكان الكثير من تلك الصور زائفا أو مشوهة من جهة ثانية ، وكان هذا الزيف ، أو ذلك التشويه هو السبب الأول فى أحداث سوء

التفاهم بيننا وبين تلك الشعوب وحكوماتها من جهة ثالثة ، وكان هو مأتى الميوعة او التحلل الخلقى عند بعض شبابنا الذين يتلقفون كل ما يرد عن الغربيين في شغف ودون تعقل أو تمحيص من جهة رابعة ـ فان هذا كله يحتم علينا أن نجعل منتجاتهم عن الاسلام في المحل الأول ، وأن نمنحها الصدارة في دراستنا وتحليلاتنا •

غير انه ينبغي أن نقرر هنا اننا لا نقصد بكلمة المستشرقين ذلك الفريق الفنى اوالاصطلاحى المحدود، بل نريدها بأوسع معانيها اذ أن بين هؤلاء الباحثين الذين تناولوا الاسلام من قريب أو من بعيد ـ أساتذة لهم تلاميذ ومريدون ، ومؤلفين لهم قراء اتباع ، ومؤرخين تناولوا أشهر الأديان بالبحث والتحليل ، واجتماعيين لهم مذاهب ونظريات ، وسياسيين لهم غايات وأهداف ، وصحفيين لهم شهرة وانصار ، وقد تناولت كل فئة من هؤلاء وأولئك الاسلام على حسب ما يسمح به لها اختصاصها وثقافتها •

لهذا يجب على كل مثقف من المسلمين أن يضع دراسات المستشرقين في طليعة بحوثه ، بل في الصف الأول من شواغله العقلية ؛ ومن ثم فاننا خصصنا وسنخصص من كتبنا وبحوثنا ومقالاتنا مكانا واسعا لانتاج المستشرقين وتحليله ونقده وتسجيل ما فيه من خير للاسلام ، ونقض ما يحتوى عليه من شر أو سوء أو خطأ أو سطحية •

ذلك لأن من واجب كل باحث مخلص للعلم أن يكشف عن مواطن الحقيقة أيا كانت ، وأن يضع النقط على الحروف في جميع جوانبها مهما تعددت وتنوعت ، ومهما كلفه ذلك من جهود ومتاعب من ناحية ، ولأننا نعد هذا النوع من الأبحاث في مقدمة الواجب علينا لديننا ورفعة وطننا وتماسك أخلاقنا من ناحية أخرى •

واذن فان العناية بتلك المنتجات لا ينبغى اهمالها أو الاغضاء عنها ، لأن لها نتائج نافعة اذا هى درست ومحصت ، وعواقب ضارة اذا هى أهملت أو تنوسيت •

بيد أنه لما كان من بين أولئك العلماء والكتاب عدد لا يستهان به قد وفقوا الى أن يستخلصوا من دراساتهم العميقة المستأنية شيئا من القيمة الحقيقية للمبادىء القرآنية ، واهتدوا الى ان القرآن يتجه دائما الى مخاطبة العقل والفطرة السليمة ويدعو الانسانية جمعاء الى السماحة والتسامح والخلق الكريم ، وانه ينادى الانسان

من أى جنس كان ، وفى أى صقع كان فيقول : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » و « يأيها الناس اعبدوا ربكم » وقد أيقنوا ان تعاليم الاسلام كونية أتت لتطهر البشرية من أدرانها ، وتنقى النفوس من أرجاسها « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » كما دعت فى حرارة الى هدم الحواجز بين الأجناس والالوان ، وازالة الفروق بين الأفراد والطبقات ولم تقر اية ميزة بين البشرية سوى المعرفة والخير والفضيلة : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » •

وفوق ذلك تهدف دائما الى تنظيم حياة الانسان على أسس من العدالة والحرية ، والى اصلاح الفاسد منها وتقويم المعوج ، والى الأمر بالتقدم والسير المتواصل نحو الكمالين الخلقى والاجتماعى •

لما كان ذلك كله يجب على الصفوة الاسلامية أن تسجل لهؤلاء النزهاء جهودهم وأن تقدرها حق قدرها وضعا للعدل فى نصابه ، واعترافا بالفضل لأربابه ، وتنفيذا لأوامر الاسلام الذى لا يرضى من أشياعه الا تسجيل الجميل للقائمين به ، ويكره منهم الكنود والعقوق ، كما يجب عليها أن تنظر بعين اليقظة والانتباه الى اخطاء من ضلوا من أولئك الباحثين سبيل الرشاد ، وأن ترد عليهم بما يفحمهم ويسكت ألسنتهم ، ويشل أقلامهم عن الاستمرار فى مجانبة الصواب •

وهذا ما سنحاول أن نفعله فى هذا السفر تجاه الفريقين : المحق والمبطل من أولئك الباحثين فى عدالة وانصاف لا يعرفان التعصب ؛ ولا يألفان المجاملة والانحياز ، ولا يخضعان للعواطف والاهواء •

نسأل الله تمام التوفيق •

حكمة عنايتنا بمنتجات المستشرقين

شاق الاسلام منذ نشأته عدد وافر من المؤلفين ، واجتذبهم الى تناول كثير من جوانبه بالبحث الدقيق تارة ، والسطحي تارة أخرى ، والحكم النزيه حينا والمغرض أحيانا ، ولما كان عددهم واتجاهاتهم وغاياتهم واستنتاجاتهم تتفاوت كثرة وقلة ، وتختلف صحة وزيفا ، وتتباين حرية وخضوعا للأهواء ، وتتغاير نزاهة وتأثرا بعوامل البيئة والعقيدة والسياسة ــ فقد اقتضى هذا كله من جانبنا نظرة عامة لتجلية الموقف بيننا وبين هؤلاء القوم الذين لا يصح لنا تجاهلهم أو التغافل عنهم ، والا كان مثلنا معهم كمثل النعامة التى تفترض أن الصائد لا يراها ما دامت لا تراه !

واليك هذه النظرة العامة :

بسط الاسلام حينا من الدهر سلطانه على قارتى آسيا وافريقية ، وجزء عظيم من قارة أوروبا من الناحيتين النظرية والعملية ، ثم اخترق صليل صوته أسماع الشعوب التى لم تدن به ، ودوى فى رءوسها صوت جلاله القوى ، فكان من الطبيعى أن يروع الساسة ويبلبل أفكار العلماء والباحثين من خصومه فى تلك الشعوب التى لم تكن تطمئن على مصيرها بازاء هذا التيار الجارف ، وكان من الطبيعى أيضا أن يدفع الغيظ المتعصبين من أولئك العلماء ــ كما دفعت غريزة حب الاستطلاع المخلصين منهم ــ الى الاشتغال بنصوص هذا الدين ودراستها للوقوف على ما فيها من فكر وآراء نظرية ، وطقوس وتقاليد عملية .

وقد كان ذلك بالفعل ، فنظر أولئك وهؤلاء فى نصوص القرآن والحديث والسيرة النبوية نظرات ادعوا أنها نقد حر وتمحيص برىء ، وأنهم لم يتخذوا منها ـ كنبراس هاد ـ سوى الحقيقة وحدها وان كان ذلك لا يتفق مع الواقع الا فى بعض الأحوال ، بل اننا نستطيع أن نجزم ـ استنادا الى ما بين أيدينا من مؤلفات أولئك العلماء ـ بأن الدراسة الجدية لنصوص الاسلام وتعاليمه والبحث الدقيق النزيه فى أسراره ومزاياه لم يبدأا الا منذ القرن التاسع عشر حين انتشرت الثقافة الشرقية فى أوروبا وأخذ المستشرقون يجدون فى فتح مغالق الشرق ، وكشف ما فيه من كنوز بعد حملة نابليون التى فاقت اهميتها العلمية أهميتها السياسية .

أما قبل ذلك العهد فقد كانت مؤلفات الغربيين عن الاسلام مدعاة للسخرية والاستهزاء بها أكثر منها مبعثا للجدل والنقاش ، لأن أكثرها كان مفعما بالجهل المطبق أو السطحية والتعصب ، وهذه الامور من شأنها أن تسقط القيمة العلمية التى هى الدعامة المتينة لجميع المؤلفات على اختلاف أنواعها وتباين موضوعاتها وغاياتها .

ونحن حين نقرر هذا لا نتجنى على أولئك المؤلفين ، ولكننا نذكر حقيقة واقعة مؤيدة بالنصوص التى فى كتبهم ، وفى كتب الباحثين المحدثين الذين هم أكثر نزاهة وعلما من بين الاوروبيين أنفسهم .

ولما كنا قد اعتزمنا ان نقصر عنايتنا فى هذا الكتاب على الكتب التى تستحق أن يطلق عليها اسم الكتب العلمية مثبتين ما حوته من حقائق معلية لشأن الاسلام هادمين ما اشتملت عليه من أباطيل وأخطاء زل فيها المؤلفون عن جهل أو شطط فى الفهم ، أو ابتعاد عن المنطق السليم ، مبرهنين على رأينا بأنصع الأدلة وأسطع الحجج ، ولما كانت هذه الخطة التى اعتزمناها تستتبع الاغضاء عن الاكثرية الغالبة من المؤلفات التى كتبت قبل القرن التاسع عشر ، فقد آثرنا أن نكتفى ـ فى جانب هذه المؤلفات القديمة ـ باشارات عاجلة الى كل واحد منها .

مما لا سبيل الى الشك فيه أن الدراسات التى أجراها الغربيون عن الاسلام فيما قبل القرن التاسع عشر ، والترجمات القليلة التى قاموا بها للقرآن الى ذلك العهد ـ كان أكثرها صادرا عن المتعصبين من رجال الدين، وكان مبعثها فى جلاء هو الرغبة فى محاربة الاسلام وتصيد المثالب المزعومة أو اقتناص الحجج المغالطة لتقديمها الى المبشرين كى يستغلوها فى جدلهم مع المسلمين ، ومعنى هذا أن تلك البحوث لم يقصد منها الا

رفع المسيحية على الاسلام ، ومن ثم لا تحتوى هى على كثير من الضبط أو النزاهة أو الحياد .

ولقد تنبه الى هذه النية السيئة من جانب أولئك المؤلفين غير النزهاء عدد من مفكرى الغرب وباحثيهم النزهاء ، وصوروا تلك الأغراض الوضيعة فى كتبهم تصويرا بارزا نرى من الحق علينا للعلم قبل كل شيء أن نقتطف منه الفقرات التالية :

١ ـ يقول الاستاذ دير مانجيم :

« حين اشتعلت الحرب بين الاسلام والمسيحية ودامت عدة قرون ـ اشتد النفور بين الفريقين ، وأساء كل منهما فهم الآخر ، ولكن يجب الاعتراف بأن اساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين ، ففى الواقع انه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التى أرهق فيها الجدليون البيزنطيون الاسلام بمساو واحتقارات ، دون أن يتعبوا أنفسهم فى دراستهم ـ هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا يهاجمون العرب ، فلم تكن مهاجمتهم اياهم الا تهما باطلة بل متناقضة (١) » .

٢ ـ قال الاستاذ كارادى فو :

« ان محمدا ظل وقتا طويلا معروفا فى الغرب معرفة سيئة ، فلم توجد خرافة ولا فظاظة الا نسبوها اليه ! » (٢) .

ونحن سنذكر هنا على سبيل التمثيل شيئا من أصداء هذه الحملات الجاهلية أو المغرضة التى لا تساوى فى سوق العلم شروى نقير ، ولا وزن قطمير والتى لا نوردها الا لنضع بين أيدى الناطقين بالضاد صورة صادقة لجهل أصحابها أو لسخف عقلياتهم ووضوح أغراضهم الدنيئة ، فهاك نموذجا من تلك المضحكات التى سودوا بها صفحات كتبهم الرخيصة فى نظر جميع أدقاء العلماء ونزهاء الباحثين .

(أ) تحدثنا قصيدة « رولان » ـ وهى أهم منتجات العصور الوسيطة الغربية فى الادب التسجيلى ـ بأن فرسان شارلمان قد أسقطوا الأصنام الاسلامية وأن العرب يعبدون ثالوثا مؤلفا من «محمد» و «أبولون» و « تيرفاجان » !

---

(١) أنظر صفحة ١٣٥ من كتاب «حياة محمد» لاميل ديرمانجيم طبعة باريس سنة ١٩٢٩

(٢) انظر ص ٢٠ من كتاب « المحمدية » للبارون كارادىفو طبعة باريس سنة ١٨٩٧ .

ولا أحسب أن التاريخ قد عرف سخفا أحط من هذا السخف ، أو ضلالا اسقط من هذا الضلال ؛ ونحن لا نستطيع أن نعزو هذه الأضلولة الوضيعة الى الجهل وحده ، بل الى سوء النية أيضا ، لأن انحصار غاية الاسلام المثلى فى التوحيد والحاح القرآن على اثبات انفراد الله بالعبادة الحق ، ومحاربة الوثنية والأوثان وازالة النبى لها من فوق جدران الكعبة — كل ذلك يوضح رأى الاسلام فى التوحيد ، بل ان كلمة الاسلام التى لا يثبت الا بها — وهى كلمة « لا اله الا الله » — هى نفسها حملة قاسية على الأوثان والوثنية ٠

أما الثالوث الذى زعم مؤلف القصيدة أن المسلمين يعبدونه فهو أمر لم يعرفه الاسلام يوما ولا المسلمون ، لأن المسلمين موحدون توحيدا خالصا نقيا لا يعرف المواربة ولا الهوادة ٠

(ب) يشاهد القارىء فى قصيدة « أورشليم » وصفا دقيقا لتمثال زعم مؤلفها انه صنع للنبى من الذهب والفضة الخالصين ، وان قاعدته تمثال فيل أصعد النبى فوقه كأنه يمثله راكبا ذلك الفيل !

وقد وصلت الجرأة على الحق والتجنى على التاريخ بهذا الشاعر الى حد أسقطه من صفوف المؤرخين الذين يسجلون الحوادث على حقيقتها اسقاطا تاما ، لان أولئك الغربيين المحدثين أنفسهم قد اقتنعوا — بعد الدرس والبحث — أن مهمة الاسلام الأولى كانت القضاء على الوثنية ومحو آثارها ، والحكم بالاعدام على جميع ما يمت اليها بصلة من قريب أو من بعيد ، بل ان المحدثين يأخذون على المسلمين مغالاتهم فى هذا التشديد ويقولون : ان المدنية الحاضرة تتطلب منهم الأخذ بنصيب من الحفر والتصوير ٠ وقد رد المسلمون على هذه الملاحظة ردودا مختلفة ليس هذا المجال موضع ذكرها ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن دعوى هذا الشاعر القديم سخيفة لا يؤيدها الحق ولا يعززها المنطق ولا يسندها التاريخ ٠

(ج) هناك رواية سخيفة أخرى ألفت بعد الانتهاء من الحروب الصليبية زعم فيها مؤلفها ان الاسلام يبيح زواج المرأة الواحدة من عدة رجال معا ، وليست هذه الأكذوبة الساقطة فى حاجة الى الرد ، لأن ضآلتها تهوى بها عن أدنى دركات الجدل والنقاش !

هذا نموذج من المؤلفات القديمة التى تناولت الاسلام بالطعن ،

والتجريح المؤسسين على المعلومات الخاطئة أو على الأهواء والاغراض (١).

ولم نشأ أن نفيض فى سرد هذه الآراء الباطلة ، أو ان نذكر عددا من تلك الكتب أكثر مما ذكرنا ، لأننا ألفينا العلماء المحدثين من الاوروبيين أنفسهم قد أنزلوها المنزلة الجديرة بها من الاغفال والاهمال ! فرأينا أن مهاجمتها غير جدية ، ولهذا آثرنا ان نتخطاها الى الكتب الجدية التى يصح أن يطلق عليها اسم الكتب العلمية ليكون البحث فيها قيما مفيدا .

ليست العصور الوسيطة وحدها هى المشتملة على هذه المؤلفات الخاطئة ، بل ان عصرى الانتقال والنهضة ، والقرنين ــ السابع عشر والثامن عشر ــ قد احتوت من هذه الأخطاء العلمية والتاريخية على مقدار غير يسير ، فكما سقط كتاب العصور الوسيطة وشعراؤها فى الأخطاء المرعبة التى أبنا لك طرفا منها آنفا ــ كذلك هوى كثير من علماء هذه القرون الأربعة الاخيرة : فمثلا « باسكال » و « مالبرانش » فى القرن السابع عشر ، و « مونتيسكيو » و « فولتير » فى القرن الثامن عشر و « رينان » فى القرن التاسع عشر . و « كازانوفا » و « دير مانجيم » فى القرن العشرين ــ كل هؤلاء قد اقترفوا أخطاء كثيرة نحو الاسلام ، وهووا فى مخالفات جدية ضد العلم والتاريخ . كما أن لهم ولغيرهم من المؤلفين الآخرين أمثال « كارادى فو » و ديزيريه بلانشيه » و « كليمان هوار » و (ماسينيون) وأضرابهم عن الاسلام آراء قيمة جديرة بالاحترام .

وسنعرض لأهم كتب أولئك العلماء فى شىء من البسط فى الفصول المقبلة ، ولكننا نكتفى هنا بأن نشير الى ان « فولتير » فى هجومه على الاسلام كان قد أراد ــ فيما يظهر ــ أن يتخذه رمزا لجميع الديانات، لأنه كان يطعن عليها من غير استثناء . ولما خشى اضطهاد الكنيسة والحكومة اتخذ نبى المسلمين ستارا يحتمى وراءه لمهاجمة جميع مؤسسى الأديان ، وقد وصل فى النفاق الى حد أن أهدى هذا الكتاب الى البابا ، لينال رضاه أو يتقى غضبه على أقل تقدير ! .

ومما اعتمد عليه العلماء فى الحكم بأن الاسلام فى كتاب « فولتير » صورة رمزية هو أن آراءه فى كتبه الأخرى عن الاسلام تختلف عن آرائه

(١) اكتفينا من كتب العصور الوسيطة بما تقدم . ومن أراد الاستزادة فعليه بالقوائم التى وردت فى كتب المحدثين حاوية أسماء تلك المؤلفات القديمة الخاطئة كالقائمة التى أوردها العالم الكبير الكونت دى كاسترو فى كتابه «الاسلام» .

في هذا الكتاب ، وان طريقته في كتابته كلها كانت دائما تشتمل على هذا النوع من المداورة والمراوغة • اللهم اذ أن يكون « فولتير » قد قصد بهذه الصورة الضالة التي صور بها خاتم الرسل في روايته ان يرضى البابا ، وضحى في سبيل ذلك بالنزاهة والحق والكرامة ، ولكنه لم يفز منه بهذا الرضا المنشود ، فخسر الصفقة وثمنها •

أما رينان فقد تناول الاسلام في كثير من مؤلفاته بالقدح ولا سيما في كتابه « الاسلام والعلم » الذى طعن فيه على العرب والاسلام طعونا دفعت المغفور له السيد جمال الدين الأفغاني الى الرد عليه بما أفحمه وألزمه الحجة بالاعتراف بضعف كثير من المصادر التي استقى منها معلوماته •

ومهما يكن من الأمر فان الذى لا ريب فيه هو أن تلك اللهجة المتحاملة ــ وان بقيت منها آثار الى الآن ــ قد جعلت تضمحل وتتلاشى في القرن الثامن عشر الذى كانوا يطلقون عليه اسم عصر الانوار ، ولكن الشعور الذى صدر عنه المفكرون في ذلك العهد لتغيير هذه الخطة لم يكن هو الاذعان للحق في ذاته ، وانما كان الفلاسفة من احرار ومؤلهين وملاحدة وزنادقة مجمعين على وجوب معاداة المسيحية ، فدفعهم هذا الاحساس الى دراسة الاسلام في شيء من العناية والنزاهة لا يستهان به ، وطفقوا يحاولون فهمه بدلا من مهاجمته وأكثر من هذا ان « الكونت دى بولا نفيليه » قد نصب نفسه مدافعا عن الاسلام امعانا منه في تجريح الكاثوليكية الرسمية•

أما مؤرخو ذلك القرن ، فان الاستاذ بول هازار يحدثنا في كتابه « الفكر الاوروبي » في القرن الثامن عشر : « انهم حين يروون واقعة ظهور الاسلام يقفون عندها لينتقموا لهذا الدين من المسيحيين الذين كانوا يكيلون له الطعون بغير حق ، وحين يمرون باحداث الحروب الصليبية يصفونها بانها لا تزيد على كونها لونا من الوان الجنون المؤذى من جانب الغربيين » •

ومهما يكن من سطحية البحوث في ذلك الحين فان الوثبة نحو الاسلام قد بدأت بل قطعت شوطا عظيما من الطريق ، ولم يقو شيء على وقفها أو وضع العقبات في سبيلها ، فبعد أن زالت المسوغات الخاصة تتابعت البحوث العلمية المحايدة التي طبعت القرنين التاسع عشر والعشرين بطابعها القوى الجدى الدقيق والتي أخذت تبرز مزايا الاسلام واحدة تلو الاخرى حتى صيرت رجاحته وصدارته وصلاحيته لكل زمان ومكان من الامور الواضحة التي لا تقبل الجدل ، بل لا تحتمل النقاش عند فريق من اجلاء

المستشرقين وادقائهم النزهاء الممتازين ، فحرصوا على تسجيله فى مواضع كثيرة من مؤلفاتهم دون تردد ولامبالاة باسخاط المغرضين من بنى جلدتهم. وقد أشرنا الى ذلك كله فى مواضعه من بحوثنا ، ونرجو أن يتأمل المسلمون فى هذه الحقائق الناصعة وألا يحملهم التعصب على الاستمرار فى اساءة الظن بجميع المستشرقين من غير استثناء ، فيأخذوا البرىء بذنب الجانى، وذلك فى نظر الاسلام اثم كبير .

غير ان هناك ظاهرة هامة بل خطيرة لا ينبغى اغفالها أو التغاضى عنها،لأنها هى الأساس الاول لفهم روح هذين القرنين الأخيرين وبحوثهما. وهى ان اتجاه القرن التاسع عشر كله كان صادرا عن الوضعية المطلقة أى أن أى بحث علمى فى جميع المحيطات لا يكون جديرا بهذا الاسم مالم يسترشد فى كل خطواته بالمنهج الوضعى ولقد بلغ شمول هذه الروح الوضـعية جميع البحوث من غير اسـتثناء الى حد ان اخذ المستشرقون يعلنون فى مباهاة انهم اعتادوا ان يعدوا النصوص الموحاة خاضعة للاختبار النقدى ، وانهم يدرسونها على المنهج الذى يدرسون به أى انتاج بشرى وانهم ـ مدفوعين بشغف الاطلاع والبحث عن الحقيقة وحدها ـ يعكفون على اصول الديانات الكبرى كاليهودية والمسيحية والاسلام ، ليدرسوها من وجهة النظر الانسانية لا أكثر ولا أقل .

ومن المحقق ان حسن نيات أكثر أولئك المستشرقين ومؤرخى الأديان بعيد عن محيط الريبة ، وان اخلاصهم للعلم ووفاءهم للحقيقة أمران مسلم بهما ، وان ثقافتهم أوسعة اطلاعهم ليست موضع شك .

ومما هو جدير بالعناية أن فريقا من اولئك الباحثين قد نزحوا الى الشرق ، فاقاموا فى ربوعه زمنا ، وألفوا الحياة بين الشرقيين وربطت بينهم أول الأمر اواصر جاذبية خفية لم تلبث أن تحولت الى ألفا ومحبة ثم صداقة مؤسسة على شىء غير يسير من التفاهم أو التعاطف الذى قد يدفع أولئك العلماء الى الحنق على المستعمرين من بنى جلدتهم والنقمة على طريقة معاملتهم للشرقيين الذين يحكمونهم ، والسخط على الاستبداد الذى يعدونه ضربا من ضروب الوحشية .

ولا جرم أن الفرق شاسع بين هؤلاء النزهاء وأولئك الذين أشرنا فى موضع آخر الى انهم يؤيدون الاستعمار بأســاليب جهنمية ، وينصحون للمستعمرين باستعمال الوسـائل الشـيطانية التى عرفوها من تجاربهم ودراســاتهم أحوال الشرق وتفاصيل حياته ومستويات أهله ، ومواطن ضعفهم ، ومواضع نقائصهم .

بيد أن بحوث أولئك النزهاء كثيرا ما تنتهي الى نتائج خاطئة أو استنباطات ضالة نجمت عن أسباب خارجة عن ارادتهم في أكثر الأحايين.

حقا ان كثيرين من بينهم يعرفون أقدار أنفسهم ويدركون حدود معارفهم ، ويتحرجون عن الخوض في بحار التأويل وحل الرموز ومحاولة تفسير الاشارات والاستنباط من التلميحات والتلويحات ، بل هم يكتفون بتعقب الجوانب التاريخية أو الاشتقاقات اللغوية مع ايضاح مناهج البحث الحديث ، فيصلون الى ثمار شهية ، ونتائج مرضية .

ولقد تنبه الى هذه الحقيقة أحد المستشرقين المتواضعين العارفين أقدار أنفسهم ، والذين يمثلون العلماء الحقيقيين اذ قال : « ان الباحثين الغربيين الذين يريدون التغلغل في العلوم التقليدية يلتقون بعقبات كئود آتية من أن هذه العلوم تصدر عن مبادىء ليس لديهم عنها أية فكرة ، ومن انها تستخدم وسائل في البحث هي بالنسبة اليهم أجنبية ، لانها تتجاوز ذلك الاطار الضيق الذي يحدق بالعلوم التجريبية الغربية ولا ريب ان الذين يشعرون بهذه العقبات من المستشرقين هم العلماء الذين هيأت لهم السماء دراسات روحية أو تنسكية واسعة الأفق عظيمة الامتداد ، فأنارت أمامهم السبل ، وأبانت لهم ان وراء هذه التجريبية أو الواقعية محيطات أخرى ليست الماديات بازائها شيئا ذا بال . ومن هؤلاء الباحثين النموذجيين الاستاذان المعاصران لويس ماسينيون ولويس جارديه .

ومما يزيد الجو اكفهرارا أن اولئك المستشرقين التجريبيين يزعمون انهم اقدر على تفهم روح الاسلام وتبين اسراره ، وتأويل متشابهاته ، وحل رموزه ممن يعنيهم الأمر بصورة مباشرة ، وكثيرا ما يدفعهم هذا الغرور الى انهم ــ حينما يعكفون على دراسة شيء من منتجات المفكرين الشرقيين ــ يضعون نصب أعينهم ان ينقضوها وينتزعوا قيمتها بجرة قلم عندما ينطقون بهذه العبارة الجريئة المنتفخة وهي قولهم « ليس هذا علميا ! » .

ومن المؤسف ان هذه العبارة الطنانة التي لا تساوي شيئا في سوق المعرفة العقلية أو الروحية الصحيحة لا تكاد ترن في رءوس السطحيين المنماعين من الشرقيين حتى تدوخهم وتذهب بألبابهم ، وسرعان مايخضعون لاصحابها ويسلمونهم ازمة الأمور ويتوارون خجلا من التحدث عن عقيدتهم ومبادئهم واسرار دينهم ورموز كتابهم ، بل عن جميع المعنويات أيا كان نوعها ، على حين انهم لو استخدموا عقولهم وامعنوا في تأملاتهم ــ لتبينوا في وضوح ان اولئك التجريبيين هم السطحيون القشوريون ومن آيات

ذلك على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر ما يدلون به من آراء فى فواتح بعض سور القرآن وقد سردنا طائفة من هذه الآراء فى هذا السفر ،وابنا انها بعيدة عن الحقيقة بعد العدم عن الوجود ! وأشرنا فى بحثنا ذاك الى ان هذه الفواتح تشتمل على رموز هائلة ، وأسرار مذهلة من ورائها قوى خفية لا يعلمها الا الله والراسخون فى العلم ، وأعلنا أن أولئك الماديين غير جديرين فى نظرنا الا بقول الشاعر :

قل للذى يدعى فى العلم معـرفة
عرفت شـيئا وغابت عنك أشياء !

وأيا ما كان فان الغريب فى هذا الأمر أن أولئك الوضعيين يتخيلون انهم بوساطة منهجهم التجريبى يستطيعون أن يفسروا تلك النصوص الدينية ، بل انهم يقدرون على سبر اغوارها ، ولكنهم لا يبرزون للقارىء منها الا ما يضعونه فيها أو ما يدسونه بين سطورها من الآراء الغربية التى لا تمت اليها بأية صلة .

وقصارى القول فى هذه الشئون اذن أن نواميس الكون قد اقتضت أن يكون لكل طبيعة مقياس ، وأن المعنويات لا يمكن أن تخضع للمعايير المادية ، وأن الرموز والأسرار لا تذعن للقوانين التجريبية ، وأن أولئك المستشرقين عندما يتعدون البحوث الاشتقاقية وتوجيهات الأحداث التاريخية واستنباط الوقائع الاجتماعية والسياسية ويخوضون فى المعنويات الرفيعة محاولين حصرها فى المقاييس التجريبية وتحديدها بحرفية الألفـاظ — تصبح خطتهم فى فهم الدين غير موفقة وتفر منهم الغاية المقصودة ويبوءون بالاخفاق الذريع ولو انهم قدروا كل شىء حق قدره ، ووضعوا الأمور فى نصابها لظفروا بالنجاح وحالفهم التوفيق .

امثلة من تلك المنتجات :

آمامى الآن كتابان عميقان من أروع منتجات الفكر الغربى وأشدها دقة ونزاهة ، وأحفظها على الروح العلمية ، واحرصها على الحقيقة التاريخية، ولذا رأيت أن اقف بك عند كل واحد منهما هنيهة ، لأطلعك على هذا اللون الذى يقضى الواجب الاسلامى قبل كل شىء بترجمته واذاعته بين المسلمين. ليروا كيف أن فريقا لا يستهان به من أفذاذ علمـاء الغرب ومفكريهم يكتبون عن الاسلام والمسلمين كتـابة قيمة تشرف عقليـاتهم ، وتخـلد أسماءهم ، وتسجل للاسلام عظمته وجلاله .

أما أول هذين الكتابين فعنوانه « يقظة العالم الاســـلامى » تأليف الكاتب الألمانى « فارنو » وهو كتاب عصرى نشر سنة ١٩٥٤ ، ويحتوى دراسة واسعة نزيهة مؤيدة بالمســـتندات القوية والأرقام الدقيقة تعقب فيها المؤلف بفطنة ملحوظة ، وحكمة ممتازة ، ودقة فائقة ، وعناية تامة ، أهم حركات البلاد الاسلامية ونهضاتها التاريخية فى مصر وسورية والهند وايران وتركيا ٠

يشير المؤلف فى الماعة تاريخية عاجلة الى بناة العالم الاســـلامى وتأليف كيانه ونمو امتداده الحربى والتجارى والسياسى والعقلى والعلمى ، فيســجل فى هذه الاشــارة من مجد السلف ما يدفع الخلف الى مواصلة الجهد ومضاعفة النشاط ٠ وبعد ان ينتهى من تدوين ذلك الجلال التليد يقفز الى أواخر القرن التاسع عشر فيشهدنا ثورة عرابى « المفعمة بالاخلاص والشــجاعة والوطنية والعزة والقومية ، والوقوف فى وجه الســلطة الطغيانية ، وسيدتها الاستعمارية ، ثم ينزلق المؤلف الى القرن العشرين ، ليصف ما اندفع فيه من ثورات العالم الاســـلامى التحررية الباعثة على الاعجاب ، بل الاجلال وهو يمهد لتصويره هذا فيقول :

« ان تلك المدنية العتيقة التى حسبت أوروبا أنها أخضعتها اخضاعا أبديا قد استيقظت من سباتها ، ونفضت عن نفســها غبار العصور ، ولا ريب ان العالم الاسلامى قد ظفر من هذه المدنية بمكانة ملحوظة ومكان عال ، اذ أنه يشبه أن يكون قارة قائمة بين أوروبا وآسيا ، ومن ثم فان يقظة هذه القارة الضخمة التى تعدل سبع سكان الكرة الارضية سيكون لها تأثير حاسم فى تقرير مصير العالم ، ولذا يصح ان تنعت هذه اليقظة بعظمى ثورات القرن العشرين »٠

وأيا ما كان فان المؤلف يجزم بأن الحربين العالميتين قد اعانتا العالم الاسلامى على تحطيم القيود التى كبله بها الاستعمار وتحطيم الاطارات التى احاط بها الظلم والطغيان ، واتاحت له الفرص المواتية ليسترد مكانتــه الرفيعة ويستعيد منزلته العالية ، ويسترجع بمخالبه حقوقه من بين فكى الاستعمار !

ولقد اقتضت هذه الحركة التى تهدف الى العودة الى المنزلة الطبيعية ، وترمى الى الظفر بالحقوق كاملة وثبتين ممتزجتين لا ســـبيل الى التفريق بينهما ، وهما الوثبة الدينية والوثبة السياسية ، وهنا يجزم المؤلف بأنه اذا حاول البعض الفصل بين النهضات الدينية والنهضات السياسية فى

الأديان الأخرى ـ فان ذلك بالنسبة الى الاسلام غير ممكن ، وهو يرى أن مصر والهند هما محور الحركات الاسلامية الناهضة ٠

واذ ذاك يأخذ المؤلف فى تحليل تلك الحركات النهوضية فى دقة وتحديد وتقدير للأمور دون أن يحيد عن احترام الاسلام وقداسته وما اشتملت عليه أصوله وتعاليمه من الوسائل المثلى لتحقيق السيادة والسعادة ، ولا يقصد البتة بالسيادة الطغيان واستعباد الغير ، أو الاستبداد بالامم والجماعات أو الأفراد ، ولا يرمى من وراء السعادة الى الرفهنية أو الميوعة ، وانما اراد بهما معنيهما الفلسفيين والاخلاقيين اللذين هما على قمة الرفعة والسمو، فقصد بالسيادة والتحررمن عبوديةالجشع والبهيمية واسناد السلطان الى الروح على المادة ، وأراد بالسعادة سعادة الضمير والمجتمع ، وبهذا ينتهى الى ان هذا الدين يشتمل على جميع المثل العليا والمبادىء السامية التى لانظير لها فى أى دين آخر والتى هى كفيلة بمنح أتباعه الحق فى قيادة الأمم وتزعم الشعوب عن جدارة واستحقاق ٠

ومما يسترعى الانتباه أن المؤلف يعالج ـ فى نزاهة ودقة وصراحة ـ خطة العالم الغربى بازاء العالم الاسلامى ويبين ما اشتملت عليه تلك الخطة من الأنانية البغيضة وفقدان العدالة الذاتية ، بل فقدان المعالم الانسانية احيانا مما يجعل الثورة فى مقدمة الأمور المشروعة بل الواجبة المحتومة ٠

وهو يسجل على الأخص أن تلك الثورات لم يكن يقدر لها النجاح لولا أنها مؤسسة على مشاعر داخلية غير قابلة للمقاومة ، سداها العبقرية ولحمتها الايمان ، وان مصر قد ضربت الرقم القياسى فى هذا بثورتها الأخيرة ٠

وهنا يقف المؤلف عند ثورتنا الحالية وقفة جاذبية وانعطاف ناشئين عن اعجاب بل اجلال ، لأنها تهدف الى تطهير البلاد من نظام فاسد متعطن ، وترمى الى تحريرها من استعمار بغيض متعسف ، ولانها وضعت أمور البلاد فى أيدى ابنائها الحقيقيين ٠

وما أبدع الحاج المؤلف هنا على أجنبية الأسرة البائدة وجهلها التام بدين البلاد ولغتها وأخلاقها وتقاليدها وعرفها وتراثها الادبى ، وقوامها الروحى ، والحاحه كذلك على ان الضباط الاحرار انما هم من صميم الشعب واعماقه الى حد انه يجزم فى لباقه أن وجوه الكثير منهم تذكر المرء بوجوه التماثيل القائمة فى دار الآثار المصرية ٠

ولا يفوت هذا المؤلف ان يسجل أن ثورة ٢٣ يوليو كانت ثورة سلمية

حادثة جديرة بأرقى المدنيات وأسماها ، ولا غرو فهل هناك مدنية أسمى من مدنية مصر ؟ •

واخيرا يختتم بحوثه بملاحظات عامة يؤكد فيها أن الاسـلام يتفق اكثر من غيره مع الأنظمة الزمنية الصالحة للحكومات والمجتمعـات ، وان الاسلام هو فى جوهره فوق الاوطان والقوميات ، وأنه يقوم بدور عنصر الجمع والتأليف والتتميم •

اما ثانى هذين الكتابين فعنوانه : « الاســـلام والجرال » تأليف الكاتب الفرنسى المعاصر « بيير بونسواى » •

وسنعود الى الحديث عن هذا الـكتاب حين نعرض لبعض الرموز الاسلامية ، ولكننا نكتفى الآن بأن نقرر ان هذا الـكتاب حلقة من سلسلة مؤلفات غربية حديثة اتجه مؤلفوها لأمر ما الى الدراسات الفطرية ، ولـما كانوا قد تبينوا من بحوثهم الطويلة المستأنية أن الاسـلام هو دين الفطرة بالمعنى الكامل لهذه العبارة ـ فقد اختصوه بالصدارة فى هذه البحوث ، وقرروا انه ـ بوساطة رسالته فوق الطبيعية ـ مستعد لأن يشمل اطاره الكون بتمامه •

ولا ريب ان هذا التعبير من جانب مؤلفنا عن اطار الاسلام الشامل للكون بتمامه يذكرنا بعبارة الاستاذ ما سينيون فى كتاب « محاولة حول أصول المفردات الاصطلاحية للتصوف الاسلامى » حيث يقول ما نصه :

« انما بفضل التصوف كان الاسلام دينا دوليا وعاما ، انه دولى بفضل الاعمال التقية التى قام بها الصوفية فى زياراتهم لبلاد غير المؤمنين ، أى بفضل المثل الرائع الذى قدمه نساك المســلمين من شــيوخ الطرق ـ الكبروية ، والشطرية ، والنقشبندية ـ الذين كانوا يتعلمون لغات الهنود وسكان جزائر الهند الشرقية ، ويندمجون فى حياتهم ، هذا المثل هو الذى هدى أولئك القوم الى الاسلام اكثر مما فعل الغــزاة ، وانه عام ، لأن الصوفية هم أول من فهموا الأثر الخالد الفعال للدين الحنيف ، وهو وجود توحيد عقلى طبيعى لجميع بنى الانسان » •

ونحن نحسب أن شهادة الاستاذ ماسينيون بأن « الأثر الخـالد الفعال للدين الحنيف انما هو وجود توحيد عقلى طبيعى لجميـع بنى الانسان » ـ شهادة لا يستهان بها ، بل هى شهادة قيمة ينبغى ألا يغضى عنها •

ومن ذلك ايضا ما يحدثنا به المستشرق الهولندى « ســـنوك هور جرونج » فى كتابه « سياسة هولندا تجاه الاسلام » اذ يقول :

« ان الاسلام بفضل تصوفه قد وجد وسيلة صعوده الى مكانة مرتفعة يستطيع منها أن يرى أبعد من الآفاق الخاصة ، أى أن هذا التصـــوف مشتمل على شيء من دولية الدين » .

ولا ريب ان فى هذا التصريح برفعة الاسلام ودوليته واشتماله على « التوحيد الطبيعى للبشرية » شهادة من جانب أولئك المستشرقين الأعلام تقطع قول كل خطيب ، كما أنها شهادة لهم أنفسهم بالنزاهة والبراءة من التعصب كفيلة باسكات المتحاملين الذين يدفعهم التعصب وضيق الأفق الى الطعن على كل الاستشراق وجميع المستشرقين من غير اســـتثناء ولو أثنوا على الاسلام ثناء لم يتطاولوا هم انفسهم الى عشر معشاره ، بل لم يرتفعوا الى مستواه !

ولسنا ندرى ما منشأ هذا الحنق على أولئك الاعـــلام النزهاء دون برهان ولا دليل ، بل دون أدنى مسوغ يستندون اليه اللهم الا أن يكون هو التظاهر بالدفاع عن الاسلام بحق وبغير حق او ان يكون ديدنهم الصراخ والصياح لمجرد رؤية ظلال العلماء الغربيين . فاذا كانت الاولى ، فالاسلام يكره الظلم ويمقت التعسف ونسبة الباطل الى اهل الحق أو عزو العدوان الى المسالمين أو رمى المدافعين عنه بأنهم مهاجمون .

وان كانت الاخرى فان الاسلام لا يرضى ان يكون انصاره من الذين يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله انى يؤفكون!»

واخيرا نحن ننصح لاولئك القوم المتعصبين ان يتبينوا الاعـــداء من الاصدقاء وان يفرقوا بين المتجنين والنزهاء ، فيصادموا الاولين فى عنف ، ويرحبوا بالآخرين فى سرور ولطف .

ومما هو جدير بالعناية أن مؤلف هذا الكتاب يلح على أن يبرز للعيان ان فكرة انحراف الغرب عن جادة الصواب ، وفكرة ابتعاده عن كل ما هو الهى ابتعادا تزداد فداحته على مر الايام ــ قد جعلتا تتضحان لدى الصفوة الغربية ولا سيما منذ ظهور مؤلفات : رينيه جينون (الشيخ عبد الواحد يحيى) وان كان ذلك لا يمنع من ان يكون هـــذا الانحراف قد بدأ يظهر للمستنيرين من الغربيين منذ العصور الوسيطة .

هناك كتاب ثالث منهذه الكتب النزيهة المنصفة وهو كتاب «دراسات

فى التاريخ الدينى » تأليف العلامة الفرنسى « ديزيريه بلانشيه » وهاك على سبيل التمثيل نبذا من قوله فى الاسلام :

« ومن جانب آخر ينبغى أن نذكر أن الدين الاسلامى مخـالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة كامنة ، وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة قدرة تامة ٠

انك لو رجعت بالدين الاسلامى الى قواعده الأصلية ومبادئه الاساسية ما وجدته قد زاد على الدين الفطرى الا نبوة « محمد » وادراكا حقيقيا وفهما صحيحا لمعنى القضاء والقدر ٠

وهذا الفهم الصحيح للقضاء والقدر يعد ثقة عامة لكل الذين يدركون بقوة عقولهم ودقة شعورهم أنهم فى احتياج شديد الى ان يسيروا فى هذه الحياة بنظام دقيق وخطة محكمة اكثر مما يعد عقيدة من العقائد أو أصلا من الاصول الدينية ، وانى اعتقد ان الشرق اذا تغلب على جموده وتخلص منه فان الاسلام لن يضع اية عقبة جدية فى سبيل التفكير الحديث ٠

ولقد أتى « محمد » للتدليل على صحة رسالته بكتاب تحدى فيـــه البشر جميعا ان يأتوا بسورة من مثله ، فقعد بهم العجز وشملتهم الخيبة وبهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذى أقفل فى وجوههم كل باب ! » ٠

المستشرقون والتصوف الاسلامي

قد يكون في معرفة آراء المستشرقين في التصوف الاسلامي شيء من الفائدة ولا سيما منهم أولئك الادقاء الذين اتسعت ثقافاتهم وغزر اطلاعهم ، وعكفوا على الدراسة والتحليل في شيء غير يسير من الاخلاص للعلم ، والتوافر على البحث قاصدين وجه المعرفة وحده لا التعصب ولا التحيز ، فاذا ماضلوا سواء السبيل ، وانحرفوا عن جادة الصواب ـ كان ذلك من جانبهم غفلة أو جهلا ، ولم يكونوا فيه باغين ولا عادين ، ومن ثم فلا اثم عليهم ، بل لا لوم ولا تثريب لان الحق غفور للمخطئين ، رحيم بالغافلين ٠

ولعل من أسباب أخطاء هؤلاء القوم ايضا انهم لا ينظرون في اكثر الاحايين الى أعماق المشكلات الروحية وبواطنها ، وانما حسبهم ظواهرها الخارجية اذ هم يكتفون بالوقائع التاريخية والترتيبات الزمنية ، والظروف السياسية والاجتماعية وما عسى أن يكون لها من آثار في تلك المشكلات ، ثم يندفعون الى الحكم بتأثير سوابقها في لواحقها دون سبر أغوارها ، والتغلغل الى ما وراءها من حجب قد يمنع سمكها من معرفة الحقيقة ، وأسيجة قد تحول صفاقتها دون ادراك الكنه الذاتي للمعضلة ٠ وفي تصوير هذه الحالة الاسيفة يقول أحد ادقائهم الموهوبين المعتدلين :

« عندما يتشبث الباحث بحرفية المسائل فيعجز عجزا تاما عن التغلغل الى روحها ـ يفر منه الهدف تماما ، وتحل محله السطحية والقشورية ٠ وهنا تنشأ من الفهم الخاطيء تأويلات معتمدة على الهوى والتحكم ولا سيما بالنسبة الى المستشرقين لانهم يشغلون ببحوث هي بعيدة

كل البعد عن روحهم الفطرية ، وتربيتهم الخاصة وعقليتهم المتعارضة بطبيعة تكوينها مع موضوعات بحوثهم .

وأيا ما كان فاننا سنحاول هنا ان نوجز شيئا من آراء اعلامهم لكيلا نجهل ما يتحدثون به عنا وعن تراثنا الروحى ، وميراثنا الفكرى ، واليك الماعة موجزة عن هذه الآراء :

لم يصعد اهتمام المستشرقين بالتصوف الاسلامى الى ماهو ابعد من القرن التاسع عشر ، وكانت أولى نظراتهم فيه او أول اهدافهم من بحوثهم حول هذا الموضوع ـ هى محاولة اثبات ارتباطه بغيره من تصوفات الاديان الاخرى السابقة على الاسلام ، كالمسيحية أو المجوسية أو المانوية ، أو البوذية ، أو المذاهب الهندية القديمة ، والتدليل على أنه مأخوذ منها أو متأثر بها الى حد يفقده ذاتيته ويبعد به قدر المستطاع عن الكتاب والسنة الاسلاميين :

ففى سنة ١٨٦٨ نشر المستشرق الالمانى كريمر محاولة هامة عما سماه منابع التصوف الاسلامى ذكر فيها ان الفضل فى مبدأ هذا التصوف يرجع الى رهابنة المسيحيين الذين طبعوه بطابعهم المؤسس ـ كما يزعم هذا المستشرق ـ على الخوف من الله والرهبة من الجحيم ، والرغبة فى الفرار من هذا العالم ، ولم يلبث هذا الكيان المسيحى المحض ان نما بفضل جماعة من النسوة المتدينات كرابعة العدوية ، اذ أدخلن فى هذا الزهد حب الله متأثرات بمصدرين أجنبيين عن الاسلام : أحدهما مسيحى ، والآخر بوذى ويبدو هذا التأثر ـ فى نظر هذا المستشرق ـ بصورة أكثر جلاء فى تصوفات المحاسبى ، والبسطامى وذى النون المصرى ، والجنيد ، وليس هذا فحسب ، بل لم يكد القرن الثالث الهجرى ينتهى حتى كان الحلاج قد بشر بوحدة الوجود ، وجعل يتشيع لها ، ويؤيدها ولا ريب أن هذه الوحدة من أصل هندى ! .

ولسنا ندرى كيف كبا ذلك المستشرق هذه الكبوة الجسيمة ؟! فنسب مبدأ التصوف الاسلامى الى الرهابنة مع أن القرآن يقول : «ورهبانية ابتدعوها » أى أنه ينبىء المؤمنين بأنها من ابتداع المسيحيين وليست من الامور الفطرية العامة فى جميع الاديان ، والنبى محمد يدفع هذا الزعم الموهم بعبارة صريحة واضحة لا لبس فيها ولاغموض اذ يقول: « لا رهبانية فى الاسلام » .

ولسنا ندرى كذلك كيف يزعم هذا المستشرق ان منشأ هذا التصوف

هو الرهبة من الجحيم مع أن النبى ــ وهو الرسول المعصوم المؤمن من سوء المصير والذى غفر الله له ما تقدم وما تأخر ــ كان أول صوفى فى الاسلام، وفضلا على ذلك فأنه صلى الله عليه وسلم ٠٠ يصف أحد أصحابه المتصوفين فيقول : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » وان أبا حنيفة النعمان ــ وهو أول أئمة المسلمين المشرعين الاربعة ، وأحد أعلام المتصوفين التابعين ــ يقول : « اللهم انى لا أعبدك طمعا فى جنتك ، ولا خوفا من نارك ، وانما حبا لذاتك » ٠

ولا ريب أن أمثال هذين : الصحابى والتابعى الجليلين بين صوفية المسلمين كثيرون ٠

وفى أواخر القرن التاسع عشر ، واوئل القرن العشرين عنى كثير من الباحثين الغربيين بمشكلة التصوف الاسلامى من حيث هى ، بل ان عددا منهم قد خصصوا جانبا من جهودهم كبراون Brown الانجليزى ، وجولد زيهر Gooidzihar الهنغارى ، وارتمان واورتين Hortaman-Hartan الالمانيين وكارادى فو Carradi Vaex الفرنسى للعناية بتأثير الصوفية فى الشعر الفارسى ، وتلك حقيقة أدبية وتاريخية لا مشاحة فيها ولا نزاع ، فان الاسلوب الصوفى والمفردات اللغوية الخاصة والصور التنسكية قد طبعت ذلك الجانب من الانتاج الادبى الفارسى بطابع بارز خالد لا يمر به احد المثقفين ولو مرورا عارضا دون ان يترك فى نفسه أثرا عميقا بعيد المدى ، بل اننا نستطيع أن نجزم ــ وقد اطلعنا والحمد لله على أهم منتجات الأمم الراقية قديمها وحديثها ــ بأن هذا التأثير يوشك ان يكون معدوم النظير فى أى انتاج آخر غير الانتاج الفارسى ٠

وأما جولد زهير فقد خصص للتصوف دراستين هامتين جديرتين بالتقدير فضلا على ذلك الفصل القيم الذى عنى فيه بدراسة التصوف والزهد من كتابه ٠

ومما هو قمين بالملاحظة هنا أن جولد زهير قد أسس دراسته ونقده لهذا الموضوع على آراء ابن خلدون ، وهو يرى أن فى التصوف الاسلامى تيارين : احدهما تيار الزهد الذى يتجاوب مع روح الاسلام وتعاليمه ، والذى هو على الاخص يبدو كأنه قاعدة لتنظيم حياة العابد ٠ والتيار الآخر ــ وهو أدخل فى باب التصوف الفنى من سالفه ــ مؤسس على معرفة الاله والعلم بأحوال المتصوفين ، وهو يقرر ان هذا التيار الاخير متأثر بالافلاطونية الحديثة والبوذية الهندية ٠

واما أرتمان وأورتين فهما يريان أن التأثير الأساسى الذى صبغ

التصوف الاسلامي بصبغته هو التصوف الهندى ۰ ولقد نشر أرتمان فی سنة ١٩١٦ دراسة قيمة حاول فيها ان يثبت ان التأثير الهندى قد سلك الى التصوف الاسلامى عدة طرق متباينة كالمقراوية والمانوية والمسيحية والافلاطونية الحديثة وهو يرى ان أبرز صورة ظهر فيها هذا الاتجـــاه الاجنبى كانت اول الامر عند الجنيد الذى طالما صرح فى التعبير عن آرائه بتلك الافكار الاجنبية ۰

وكذلك نشر اورتين فى سنة ١٩٢٧ دراسة عن الحلاج والبسطامى والجنيد بذل فيها جهدا عظيما فى اثبات أن التأثير الهندى جلى أتم الجلاء فى مذهب الأول من هؤلاء الثلاثة ۰

وأما آسين بالاســيوس Asin Palacios فقد قام ببحوث عـدة ودراسات واسعة متنوعة وبذل مجهودات مشكورة ، لأنها كانت فى اعتقادنا خالصة لوجه العلم وحده ، فاذا كان قد اخطأ فذلك امر طبيعى ، وعذره فيه واضح . وهو الجهل بالمبادىء الروحية الذائعة فى القرآن ، ذيوع الحياة فى الأبدان ، والغفلة عن تصوفات النبى واعتكافاته قبل البعثة وبعدها ، وان كان كثير من الباحثين لا يستسيغون ان يجهل مستشرق ممتاز كهذا تاريخ غار حراء وما وقع فيه مما ملأ سمع الزمن وبصره من الصور الروحية الفاتنة والاعاجيب الميتافيزيقيـــة الاخـــاذة التى كثيرا ما ارهقت الجانب البشرى فى النبى وصقلت الناحية الروحانية فيه صقلا اعده للرسالة خير اعداد وهيأه أكمل تهيئة لأن يكون خاتم النبيين ورحمة للعالمين ۰

ولئن جهل ما قبل البعثة من حياة النبى ـ كيف يجهل اعتكافاته التى ملأت المحيط الاسلامى أحاديثها وأنباؤها وأوصافها ، ثم كيف يجهل سلوك أهل الصفة ، وتاريخهم مشهور معروف ، والحديث عنهم فى جميع البيئات الاسلامية متواتر مألوف ، ولكن هذا المستشرق على كل حال أجنبى قد يكون من الممكن انه تعذر عليه الالمام بهذه الوقائع على شهرتها وانعقاد الاجماع عليها « لعل له عذرا وانت تلوم ۰

على انه اذا ساغ له ان يجهل كل هذا فكيف يسوغ له ألا يعرف أى شىء عن زهادة الصحابة وتابعيهم ومن ساروا على انساقهم القويمة من عباد المسلمين وزهادهم الذين ثبت أنهم لم يتأثروا بأى عامل آخر غير الكتاب والسنة فلو ان هذا المستشرق قد عرف شيئا من ذلك ما أعلن فى صراحة ووضوح ان المتصوفين الاولين من المسلمين قد استعاروا كثيرا من نسكهم وزهدهم وطرائقهم الصوفية من رهابنة سورية وفلسطين ومصر ، ولكنه

أعلن كذلك ان متصوفى الأندلس لم يلبثوا أن أثروا بدورهم فى متصوفى المسيحيين فى اسبانيا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ٠

ومما تنبغى الاشــــارة اليه أن هذا المستشرق هو الذى اليه يرجع الفضل فى اثبات تأثر دانت الشاعر الايطالى العظيم بأبى العلاء فى خريدته القيمة ولم يكتف بهذا ، بل ألف رسالة أثبت فيها أن عناصر هذه القصيدة الاساسية مؤلفه ٠٠ من متناثرات جمعت من الثقافة الاسلامية ٠

وأما البارون كارادى فو ، فقد أفاض افاضة قيمة فى الكتابة عن التصوف الاسلامى ، وقد عرض لبعض أعلام الفكر من المسلمين بصــــورة جديرة بالتقدير والاعجاب ٠ وليس أدل على ذلك من مؤلفاته الضـخمة المستفيضة عن « ابن سينا » و « الغزالى » و « مفكرى الاسلام » ، ففى هذه المؤلفات عن بحوث المستشرق وجهوده ونيته الخبر اليقين ٠

هناك مستشرقون آخرون قد خصصوا كل مجهوداتهم للتصــــوف بالاسلام وقصروا بحوثهم على نواحيه المتشعبة وجوانبه الفسيحة، وفروعه المترامية الاطراف ، وأشــهر هؤلاء المستشرقين الاســـتاذان ماســينيون Massignen الفرنسى ونيكولســــــون Nicholson الانجليزى ، وقد تخصص الأول فى التصوف الاســــــلامى وبرز الآخر فى التصــوف المقارن ٠

وحســــبنا ـ بالنسبة الى الأول ـ أن نحيل القارىء الى كتابه عن الحلاج الذى نشره بالفرنسية فى سنة ١٩٢٢ ذلك المرجع القيم والثبت الممتاز الذى يعد من الخسارة العظمى ـ للثقافة الاسلامية ولجميع الناطقين بالضاد ـ ألا يترجم هذا الكتاب الى العربية فهو فيما نعلم أدق كتاب غربى كتب فى هذه الناحية من نواحى التراث الاسلامى ، بل ان المصادر التى سجلها المؤلف فى هذا السفر ودلل على أنه استوعبها وأفاد منها لهى كافية لاثبات تضلع هذا الجهد فى الناحية التى خصص جهوده لها ٠

ومهما يكن من الأمر فان هذا العالم المستشرق قد رسم ـ لبحوثه فى منابع التصوف الاسلامى ـ منهجا كانت خلاصة نتائجه أن منبع هذا التصوف هو القرآن قبل كل شىء ثم العلوم الاسلامية كالحديث والفقة وعلوم اللغة وما الى ذلك ٠

وأما الأســـتاذ نيكولســـون فانه ـ بعد شىء من التردد فى آرائه والتأرجح فى افكاره ـ قد انتهى به البحث فى سنة ١٩٢١ الى أعلان ان

منبع الزهد الاول عند المسلمين اسلامى ، ولكنه فيما بعد قد خضع لتأثيرات اجنبية كالهنديةوالافلاطونية الحديثة ٠

ومن أهم ما يسترعى النظر من آرائه جزمه بأن القول بوحدة الوجود عند الحلاج أو عند ابن الفارض باطل ، وان هذه الوحدية لم تظهر فى المحيط الاسلامى الا عند ابن عربى ، ولا ريب ان رأى هذا المستشرق هو الباطل من أساسه ، بل هو بعيد عن الحقيقة بعد العدم عن الوجود ، لأن هذا الامام الجليل من بين المتأخرين هو الصوفى الوحيد الذى لم يتأثر بالأجانب ألبتة ٠

يبين مما تقدم أن هناك نوعين من الكتب يعرضان للاسلام والمسلمين وأن أحدهما لا يساوى فى السوق العالمية الورق الذى يكتب عليه ، ولكن مؤسسات الدعاية السياسية الثرية النشيطة تنشر هذه الكتب بين ظهرانينا وترغمنا ــ بعوامل الحياة المختلفة ــ على قراءتها ، فيتأثر بها البسطاء والأبرياء من مواطنينا تأثرا وخيم العاقبة ٠

والنوع الآخر هو هذه الكتب القيمة الدقيقة كالتى أشرنا اليها هنا وهذا النوع لا يكاد يجد مشجعا ولا نصيرا برغم أن أبسط الواجبات يقضى بتشجيعه والعمل على نشره بين ربوع المسلمين بكل الوسائل الممكنة ٠

والآن ــ والى أن تتم يقظة الأمة الاسلامية ــ ينبغى أن نقرر أن جميع هذه النماذج من الكتب الغربية التى تسجل سمو الاسلام يجب أن تعد كتبا نافعة لا يصح لنا نبذها ، أو اهمالها مادام أنها تبرز ناحية من نواحى هيبة الاسلام ، وجانبا من جوانب عظمته الباهرة أمام العالم الحديث ٠

القرآن والمستشرقون

- ١ -
زهرة من بساتين ظواهره

يخيل الى الانسان أن التفكير السامي والتأمل الرفيع قد أصبحا الآن في خبر كان ، أوهما على الأقل في طريقهما الى الزوال ، وانهما ليسا من خاصيات عصرنا المفتون بالآلية المادية والميكانيكية العملية والهاوى تحت عبودية العلوم التجريبية ، ومن ثم فانه يبدو غريبا ان لم يكن داعيا الى السخرية في هذا العصر أن يتحدث المرء عن المبادىء الرفيعة وأن يدعو الى السكينة الروحية في وسط هذا القلق النفسى الذى يكتنف العالم ، وذلك الشقاء المعنوى يحدق به احداق السوار بالمعصم ، أو أن يتحدث عن العدالة المثالية في وسط ذلك الخضم الدولى المائج بالمظالم المفعم بالأنانية والوحشية والطغيان !

ولكن رسالتنا في هذه الحياة تحتم علينا ألا نغفل أى مبدأ من هذه المبادىء السامية لنحارب أضدادها بكل ما أوتينا من قوة ، والا جارينا غيرنا من أهل العصر في الاستهتار أو في الاغضاء عن الرذائل ، أو في الاكتفاء بالسخط القلبى عليها « وهو أضعف الايمان ! »

قد يأخذ علينا البعض أننا نعنى بالمبادىء الرفيعة في عصر ، بل في عالم اصبحت الاكثرية الغالبة من أهله عملية مادية ، وأن نصائحنا ستذهب صرخة في واد ، أو نفخة في رماد وأن الناس-في وسط ضوضاء هذه المدنية الصاخبة لن يستجيبوا لنا ، وان الحكمة تقضى علينا بأن نشغل أنفسنا بشىء مثمر بدلا من هذا العبث المحقق ، وان نعنى بأمر

منتج كمعالجة الآلام المادية كالفقر والمرض مثلا ؛ فان نتائج جهودها اسرع وثمار العمل فى حقولها أنفع ، ولكن هذا خطأ ؛ فالاقتصار على الثمرة العاجلة يهوى بالانسانية الى حضيض البهيمية بل الوحشية !

واذن فنحو المبادىء العالية يجب أن تتجه جميع الآمال ، وصوب الصالح المجموعى ينبغى أن تسير كل الجهود متكاتفة متعاونة مبتدئة من تعاليم السماء ، منتهية الى تطهير المجتمع من أدوائه الخلقية ، وذلك لعمرى أخلد المجهودات ، وانفع الثمرات ، وقصوى الغايات ، وعليا السعادات ٠

ليس لهذه الكلمات هدف آخر غير دعوة ذوى الاستعدادات الصالحة، والنيات الصادقة ، والمقاصد الخيرية ، الى التنقيب عن أصول الفضائل النفسية العظمى التى نبعت من مبادىء الاسـلام الفطرية والتى تثوى عناصرها فى الكتاب الكريم والسنة الغراء ، والتى برزت للعيان فى تلك المبادىء الرائعة ، وهاتيك الشعائر السـاطعة ، والى التأمل فى دلالاتها التى تنتهى حتما الى مضاعفة القوى الأمينة التى لا تقبل الفساد ولا يلحقها الدنس ، والتى اذا غذيت بالتأمل تمت لها السيطرة على الحياتين الباطنية والظاهرية ٠

وبيان هـذا ان النفـوس البشرية فى أمس الحاجة الى الهـدوء والسكينة لأن ضجيج الحياة المادية ، وعجيج الرغبات الحسية وصلصلة أصوات الأثرة والأنانية ـ تجفف النفوس وتجعلها أشبه الأشياء بالارض القاحلة المقفرة فى قلب الصـيف القائظ حيث تكون فى أشد حـالات الافتقار الى الماء الذى يعيد اليها حياتها وخصـبها ، ومن ثم فان تلك النفوس قد أصبحت دائبة التطلع الى المثل العليا التى تقدم اليها هـذه المعونة اللازمة لسكينتها التى فقدتها فى وسط تلك الضوضاء الحيوانية ، ومن ثم أيضا أن كل ما يعينها فى العثور على طريق هذا الملجأ الخفى ويقدم اليها مفاتيح سر الحياة الباطنية هو الذى يحقق لها تلك السكينة المنشودة٠

وهناك فقط تستطيع أن تظفر بالاعتدال والانسجام والثراء الخلقى الذى هو وحده الوسيلة المثلى التى ترفع الانسانية ، لأن التقدم الحقيقى هو تقدم النفس لا تقدم الجوانب الدنيا فى الانسان ، ولا غرو فاننا لانزال نسـمع من خلال هذه الضوضاء الوحشية المسممة التى تصم الآذان أصواتا علوية تهتف من وراء حجب السماوات معلنة أن معالم الانسانية الراقية لاتزال تحمل تعاليم الملأ الاعلى ، وأوامر ما بعد الطبيعة الى الارض المظلمة لتنير حنادسها ، وتقوم اعوجاجها ، وتصلح فسادها وتتجه بها نحو الكمال ، وأبرز هذه الأضواء العلوية المنسكبة على البشرية من عالم

الأزلية هو القرآن الذى يرى فيه كل مصــلح اجتماعى ، بل كل متعقل نزيه لونا من ألوان التهذيب والتأديب اللذين يقهران الغرائز على القــاء أسلحة الرغبات واطفاء الشهوات ، ويدفعان الانســانية الى أن ترتفــع فتعرف منزلتها الحقيقية ، وتعنى بكرامتها التى هى أساس تميزها عن بقية الكائنات التى تدب على الأرض هائمة فى وديان الظلمات !

أجل ان القرآن هو أسمى الكتب السماوية التى تبدو فيها سمات الرقى جلية ناصعة مهما سخر أولئك السذج المتعصبون لآلية العصر ، والمتذيلون للمدنية المادية التى تقوم على أساس الغرائز والتى لابد أن تهوى فى العاجل القريب الى التلاشى والفناء ، بل قل : انها بدأت تسير فى طريق الانمحاء بخطوات واسعة لن تغيثها منه ســلطة الاختراعات ، ولن تنجيها قوة الحديد والنار !

حقا ان ما يحتويه القرآن بين ثناياه من أمارات السمو وعلائم الكمال لهو خليق بالدرس والتأمل ، ولم لا ؟ ألسنا فى الوقت الذى نرى فيه أنصار المدنية المادية وأشياع الحرية الزائفــة يوغلون فى الظلم والجشع والكذب والنفاق ، نشاهد مبادىء هذا الكتاب تنتصب وسط هذه الدائرة الجهنمية الصفيقة المؤلفة من الآثام والجرائم منارة عالية لما بعد الطبيعة تشع من ثناياها الأنوار السماوية وتنبعث من خلالها الاصوات الأبديةهاتفة باسم الحق ، معلية كلمة الفضيلة ، ناطقة بقداسة الشرف واحترام العــدالة والانصاف ، لا تكاد هذه الأنوار تبدو حتى تغشى عيون الآثمين ويخطف سنابرقها أبصار المجرمين ، ولا توشك تلك الأصــوات أن تهتف حتى ترتجف منها قلوب الظالمين وترتعد لهــا فرائص المنافقين ، ويحس أولئك وهؤلاء فى افئدتهم بالرهبة من السماء تهددهم وتنذرهم بالويل والثبور ، وعندئذ يحنقون على أهل هذه التعاليم القوية الكاشفة عن تضليلهم ، والفاضحة لتغريرهم ، ويودون أن يمزقوهم شذر مذر ، ليزول سلطانهم ويتزلزل كيــانهم ، وحينئذ لا يجــدون أمامهم أنجع من وســائل الدس والتفريق ، ولا أنجح من بث الشقاق والتمزيق ، ولا أحد من سيف الاغراء والاغواء وتملق المطامع ، والتزلف الى الأهواء ، وانشاب أظافر الاستعمار فى بلادهم ، والهيمنة على مرافقهم ، والتسلط على مصادرها ومواردها حتى يستذلوهم ، فيخفتوا بهذا الاستذلال ذلك الصوت العلوى الذى يروعهم نهارا ، ويقض مضاجعهم ليلا !

ولكن لو أن المسلمين أخلصوا لدينهم ، واتبعوا تعــاليم كتابهم ، وتخلقوا بأخلاق نبيهم ـ لسخروا من كل اغراء ، وهزئوا بكل اغــواء ، وأصموا آذانهم دون الترغيب والترهيب ، وأغمضوا عيونهم عن البعيد

والقريب ، ونظروا الى المثل الاعلى المرسوم فى قرآنهم وتطلعوا الى السمو المتمثل فى كل آية من آياته ، ولأيقنوا ان هذا الكتاب من شأنه أن يقودهم الى الحرية والسعادة ، بل الى الرفعة والسيادة ، ذلك بأنه اذا انتصرت فى قلوب المؤمنين روح الخير التى تمثل الألوهية على الأرض ، تعهدت هذه الروح العلائق بين الانسان وربه بالتقوية والانماء ، ومتى تقوت تلك العلائق جعلت النفس المؤمنة تتلقى أوامر السماء بهيئة نقية صافية ، ثم تمليها أولا على حياتها العملية الخاصة حتى يطبق العلم على العمل فتتحقق الحكمة « **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب** » .

فاذا تم للمؤمن ذلك أفاض تلك الأوامر الالهية على بيئته ومجتمعه ، وقد تتسع هذه الدعوة حتى تعم الانسانية جمعاء ، واذ ذاك تصلح حالة الدنيا ويسودها السلام والوئام ، وتشملها العدالة والنصفة ، ويحل الرضا محل النزاع ، وتشغل المحبة من النفوس موضع البغض والحفيظة ، ومن آيات ذلك ان الأوامر الالهية كانت منذ غابر العصور ولا تزال ، وستظل تقتاد بنى الانسان الى الفلاح والكمال اذا وضعوها موضع الاحترم والعناية والتطبيق ، ولكنها تشهد دمارهم وفناءهم اذا هم سحبوا عليها ذيول الاهمال والنسيان !

القرآن اذن هو روح الاسلام الذى أشع ولا يزال يشع فيه الكينونة والوجود ، وهو قلبه الذى ينبض بالحياة ، وعقله الذى به يفكر ويتأمل والذى ضمن له ذلك الامتياز العملاقى على جميع ما عرفته البشرية من أديان ، والذى أفاض عليه تلك المبادىء السامية الخالدة التى صيرته عاما أو دوليا على حد تعبير بعض ادقاء المستشرقين من نزهائهم المخلصين للعلم ، أستغفر الله ! بل فطريا يشتمل على كل خير الانسانية وعوامل رقيها وتقدمها ، محتويا على جميع عناصر الصلاحية لكل الأزمنة والامكنة والبيئات والمجتمعات على اختلاف نزعاتها وتباين مشاربها مما حقق لنبيه أن يكون خاتم النبيين وآخر المرسلين وحامل العلم الرئيسى لأوامر رب العالمين ، وجعل رسالته غاية الغايات ، ونهاية النهايات ، وأسند اليها الكلمة الفاصلة والقول الحاسم فى جميع التشريعات الفردية ، والعلائق الأسرية ، والقوانين المدنية ، والأنظمة الدولية ، والمعاملات الاقتصادية والاجتماعية ، والسلمية والحربية ، والمعاهدات السياسية .

وبالاجمال كل مايحتاج اليه الفرد أو الأمة فى الحياة الخاصة أو العامة .

وفى وصفه يقول المستشرق الكبير الاستاذ ما سينيون مايلى :

« ان القرآن نظام عالمي واقعي موحى فهـو ينظم تطبيق كل حادثة من احداث الوجود وشرحها وتقديرها ، انه ـ بالنسبة الى جميع المؤمنين ـ بمثابة ذاكرة قد أعدت أتم الاعداد ، أو مذكرة احصائية للمفردات اللغوية، أو قاموس من لا قـاموس له ، وهـو بالنسـبة الى كثيرين أيضـا كتاب للتعريفات المضمونة والقابلة للتطبيق دائما ، والتي تتيح التمرين للتأمل ؛ انه رفقة ابدية للارادة البشرية ، ومجموعة من العظات للأفعال العملية ، وللتأملات الباطنية التي تركز الانتباه في البراهين على المجد الالهي بصورة لا تنقطع . والقرآن هو الذي يقوم بدور تبسيط مشكلة منهج الحياة أمام المؤمنين ؛ لأن هذه المجموعة من القوانين الموحاة هي التي تغذي الذاكرة وتحل عقال العمل دون أن يكون لدى الفكر حاجة الى التردد .

« ويقول المستشرق الفرنسي الاستاذ ليبون :

« حسب هذا الكتاب جلالا ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التي مرت عليه لم تستطع أن تجفف ـ ولو بعض الشيء ـ من أسلوبه الذي لا يزال غضا كأن عهده بالوجود أمس ... ! » .

ويقول الاستاذ ديزيريه بلانشيه مؤلف كتاب « دراسات في التاريخ الديني » :

« ولقد اتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله ، فقعد بهم العجز ، وشملتهم الخيبة ، وبهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذي أغلق في وجوههم كل باب » .

ويقول الاستاذ دير مانجيم :

« لقد تحدى محمد الأناسي والجن أن يأتوا بمثله ، وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الامر في القرآن يتعلق بقيمـة أدبية استثنائية ، بأن محمدا كان يحتقر الشعراء ، ودفع عن نفسه أن يكون واحدا منهم ، ولكن الامر يتعلق بشيء آخر غير هذه القيمة ، وهو الفرق بين وحي الاله وتلقين الشياطين » .

هذا هو مجمل آراء فريق من العلماء الذين يبتغون من بحوثهـم مرضاة العلم في ذاته ، ويقصدون وجه الحقيقة حيث كانت فلا ينحرفون عنها الا بقسر ارادتهم حين يقتادهم الجهل أو السطحية الى هذا الانحراف بحسن نية ودون أية رغبة في التحامل أو التجني أو الافتيات .

ولكن هناك فريقا آخر من الباحثين الغربيين يخضعون في بحوثهم لأهواء شخصية ، أو مطامع فردية ، أو اهـداف سـياسية ، أو تعصبات

دينية تعميهم عن الحق ، وتضلهم عن الصراط السوى ، فهم حين يدرسون القرآن دراسة عميقة ، ويتأملون فى مبادئه الأساسية ، وعناصره الاولية تأملات دقيقة مستأنية ، ويتبينون ميزاته التى لا نظير لها فى اى كتاب سماوى آخر - نراهم بدلا من الاشارة بهذه الحقائق الناصعة يسارعون فيسرون الى بنى جلدتهم من المستعمرين بأن القرآن كتاب خطير ، لأنه اشتمل على مبادىء تقيم الدنيا وتقعدها ، واذا تحقق فهمها وتطبيقها ساد اهل هذا الكتاب الكرة الارضية كلها ! فمن هذه المبادىء مثلا الترابط والتماسك والاتحاد .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » و « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

ومنها الحض على التعاون على الخير ، والتحذير من التعاون على الشر او الظلم أو الطغيان بدافع العصبية او العنجهية : « **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** » .

ومنها النهى عن السخرية الجارحة وتبادل الغمز واللمز والتعايب بالألقاب المهينة واجتناب سوء الظن فى كثير من الأحايين ، وذم التجسس والغيبة والنميمة وما الى ذلك من المناقص والرذائل التى تتسبب فى النفور وقطع العلائق بين الافراد وزعزعة الأسر وهدم كيان المجتمعات :

« يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا انفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاثم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » أو « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم » و « ويل لكل همزة لمزة » ، و « ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم » .

ومنها الصدق والأمانة والعدل والوفاء بالعهد : « **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » و « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » و « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » و « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » .**

ومن هذه المبادىء الخطيرة قبل ذلك كله الحض على العلم والاستزادة منه ، والتخلص من الجهل ، وتشبيه الأول بالنور والابصار والظل ، والآخر بالظلمة والعمى والقيظ ٠

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » و « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور » و « وقل رب زدنى علما » و « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم » ٠

بل بلغت عناية القرآن بالعلم الى حد أنقرر أن الانسان الذىيخشى الله اكمل الخشية ، ويقدر جلال الألوهية حق قدرها — انما هو العالم وحده : « انما يخشى الله من عباده العلماء » ٠

واذا كان ينبغى لنا أن نضيف شيئا الى ماتقدم فاننا نقرر فى نزاهة ان القرآن الى جانب ذلك كله يرطب ألسنة الأطفال ويعودهم النطق باللغة الفصحى ويقوى ذاكرتهم ، ويعينها على الاستظهار ، ويمرن حافظاتهم ، ويساعدها على الاختزان ، ويحول الشباب الموهوبين الى متحدثين فصحاء، وخطباء بلغاء ، ومستشهدين ادقاء ، ومحاضرين ممتازين ، وكتاب متفوقين!

وأيا ماكان فان هذا الفريق الاخير من المستشرقين يعلق على هذه المبادىء القرآنية بعبارات مختلفة مؤداها كلها أن المسلمين اذا عرفوا كتابهم حق المعرفة وطبقوه أكمل التطبيق فالويل كل الويل للاستعمار، اذ أنه لن تقوم له قائمة بعد الساعة التى تتم فيها هذه المعرفة ، ويتحقق فيها ذلك التطبيق ٠

ومن ثم يتبين ذلك المجهود الذى يبذله المستعمرون فى أن يبقى القرآن مجهولا ، وان تظل مبادئه مهجورة بعيدة عن التنفيذ ! ٠

غير أننا نأمل أن نفوت على المستعمرين وناصحيهم من بنى جلدتهم هذه الفرصة الخطيرة حتى لا يظفروا بتلك البغية التى طالما عملوا لها فى عصور الخمول والظلام !

واذا كان القرآن للاسلام هو الروح والقلب والعقل ، كما أسلفنا، واذا كان الكائن الحى لا وجود له بغير هذه العوامل الأساسية الثلاثة ، بل

الجوهرية لكيانه ففى مقدمة واجبات كل مسلم مخلص أن يساهم ـ على حسب امكاناته ـ فى العمل على ادامة اشعاع هذا النور السماوى فى كل مكان ، واستمرار جلجلة ذلك الصوت العلوى فى كل زمان ، لأن القرآن ليس كالكتب السماوية الأخرى ، يكتفى بما فيها من معانى العظمة ومرامى النصيحة ، أو التذكير بالوصايا الالهية ، وانما هو محتو على أهـداف لا يحصيها العد ، وغايات لا تندرج تحت الحصر ، ومرام ليس فى امكان العقليات البشرية ان تتغلغل الى أعماقها ، وأن تسبر أغـــوار فوائدها وامتيازاتها .

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ! » .

قطرة من بحار خفاياه

فواتح السور

من النواحي القــرآنية الخفية الهــامة التى أهاجت غريزة حب الاستطلاع عند المستشرقين ، وأثارت فى نفوسهم رغبة البحث فى القرآن، ودفعت فضولهم الى تعقب اسراره ومخبوءاته ، ناحية فواتح الســـور ، وممن افتتنوا بهذا الجانب الخطير الاساتذة المستشرقون « نولدّيك » ، و « شفالى » و « لوت » و « بوير » و «هيرشفيلد » و « بود » و «بلاشير» وغيرهم .

ولا جرم ان لهــم العذر فى ذلك كل العــذر ؛ فلطالما قذفت هذه الفواتح ـ منذ فجر الاسلام بالرهبة فى القلوب ، ولشد ما أفعمت النفوس بالهيبة والجلال أحيانا، وبالرعب والفزع أحيانا أخرى، وان ننسى لاننسى موقف عتبة بن ربيعة حين تلا عليه النبى صلى الله عليه وسلم قول الله جل جلاله : « **حم** » الى قوله : « **فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** » ، فذهب الى صناديد قريش ، وقال لهم « والله لقد سمعت محمدا يتلو كلاما ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بقول البشر » فقالوا له : « تالله لقد سحرك محمد ! وقد فقدناك منذ الآن ! » .

ولا غرو فالله جل شأنه ـ حين أمر رسوله بتلاوة هذه الآيات الرهيبة على أحد أعدائه المتازين ـ كان أعلم العالمين بما ستحدثه من اثر فعال فى نفوس أولئك المعاندين الأذكياء من فصحاء العرب الذين هم خير من

يقدرون هذه الآيات ويشعرون عن طريق الفطرة السليمة بقيمتها ، وان خفيت عليهم معانيها وأسرارها ٠

ومن ثم فقد استنتج بعض المؤولين من حادثة عتبة ومثيلاتها ان الفواتح قد أتى بها على تلك الصور الغامضة قصد الترهيب لا اكثر ولا اقل ، وتلك نظرة سطحية وأفق ضيق ، اذ أن هذا التخريج ــ وان كان قد صدر عن مسلم حسن النية ــ يشعر بارادة التهويل ، بل التمويه الذى لا يليق بذى الجلال والاكرام ، وانما الحقيقة هى أن تلك الفواتح قد اشتملت على أسرار هائلة ، ومخبوءات رهيبة فى ذاتها وما اشتمل على الرهيب صح به الترهيب ٠

ولقد تسبب هذا الغموض الذى أحدق بالفواتح فى كثير من المجادلات الحادة والتأويلات المتباينة، والتخريجات المتعارضة،بل تسبب فى اقحام عدد من الخرافات التى ماكان ينبغى أن تتصل بالقرآن الكريم ، أو أن تلتصق بتاريخ تفسيره الجليل ، وذلك كتلك الأسطورة التى سجلها الطبرى وابن كثير فى تفسيرهما ، والتى رويا فيها أن ابن عباس ــ حين سئل عن مرمى « حم عسق ــ لاذ بالصمت خجلا ، لأن هذه الآية فيما ترى الخرافة كانت تشير الى ذلك المصير السيىء الذى سيلقاه أفراد أسرته : من قتل وتنكيل وتدمير !

وأعجب من هذا أن أحد الشيوخ فى أيامنا هذه حين رأى تلك الأسطورة ورأى أن بطلها الوهمى يدعى عبد الاله ، أراد أن يفهم الناس انها حقيقية ، وأن عبد الاله هذا هو وصى عرش العراق الأخير ، وأن نبوءة الآية الكريمة قد تحققت على أيدى رجال الثورة العراقية الراهنة ، وقد فات هذا الشيخ وأضرابه أن مرمى الآية الكريمة أعظم وأخطر من مصير عبد الاله وفيصل ، وأن الأفق القرآنى أوسع ملايين المرات من أن يتحدد بحادثة فردية صغيرة كهذه الحادثة ومثيلاتها ٠

ومهما يكن من الأمر ، فقد سرد لنا المفسرون فى هذه الفواتح عددا كبيرا من الآراء نود أن نلم بأهمها قبل أن نشير الى آراء المستشرقين فيها ، وقبل ان ندلى برأينا المتواضع فى هذا الشأن الخطير من شئون الرموز الاسلامية التى هى موضع الاجلال من ذوى العقليات الراجحة التى لا تكتفى بالقشور دون اللباب ، لأنها تعلم أن الأمور المعنوية الصادرة عن العظموت الالهى الذى لا يتناهى ، لا بد أن تبلغ من العظمة حدا لا يتناهى، وان وقوفها عند هدف صغير ، أو غاية ضئيلة ، او تحددها بأفق ضيق

محصور ـ يستلزم تباين الصادر مع جهة الصدور وهذا وضع مقلوب متعارض مع طبائع الأشياء ٠

وأيا ما كان فقبل ان نسرد تلك الآراء بقسميها ـ الاسلامي والاوربي ـ ينبغي ان نشير هنا الى شيء من الطوابع الخاصة المميزة لتلك الفواتح ، واليك البيان :

وردت هذه الفواتح في تسع وعشرين سورة من القرآن وقد رتب بعض الباحثين السور التي ابتدأت بها ووضع لها جدولا على النحو التالي :

سورة٢البقرة الم	سورة ١٠ يونس الر	سورة١٣الرعد المر
سورة٣آل‌عمران الم	سورة ١١هود الر	سورة١٤ابراهيم المر
سورة٧الأعراف المص	سورة١٢يوسف الر	سورة ١٥ الحجر الر
سورة١٩مريم كهيعص	سورة٣١لقمان الم	سورة٤٣الزخرف حم
سورة٢٠طه طه	سورة٣٢السجدة الم	سورة٤٤الدخان حم
سورة٢٦الشعراء طسم	سورة٣٦يس يس	سورة٤٥الجاثية حم
سورة٢٧النمل طس	سورة٣٨ص ص	سورة٤٦الأحقاف حم
سورة٢٨القصص طسم	سورة٤٠غافر حم	سورة٥٠ق ق
سورة ٢٩العنكبوت الم	سورة٤١فصلت حم	سورة٦٨القلم ن
سورة٣٠الروم الم	سورة٤٢الشورى‌حم عسق	

ومن الطوابع التي ميزت تلك الفواتح أنها تدور كلها في اطار أربعة عشر حرفا من الحروف الهجائية وانها صيغت في أربع عشرة صورة مختلفة، وهي :

(١) ص ، (٢) ق ، (٣) ن ، (٤) طه ، (٥) طس ، (٦) يس، (٧) حم ، (٨) ، (٩) المر ، (١٠) طسم ، (١١) المص ، (١٢) المر ، (١٣) كهيعص ، (١٤) حم عسق ٠

ومن هذه الطوابع ايضا أن ثمانيا وعشرين سورة من التسع والعشرين التي بدئت بالفواتح ، واقعة في الخمسين سورة الأولى على حسب الترتيب الوارد في المصحف وانه ليس منها في القسم الاخير الا سورة القلم ٠ ومنها كذلك انه يلاحظ في بعض هذه السور على اثر الفواتح وجود كلمات « **ذلك الكتاب لا ريب فيه** » (البقرة) أو « **كتاب انزل اليك** » (الأعراف) أو « **تلك آيات الكتاب الحكيم** » (يونس) أو « **تلك آيات الكتاب المبين** » (الشعراء) ٠

والبعض الآخر يثنى بعد الفواتح بالقسم كقوله : « **يس والقرآن الحكيم** » أو « **ص والقرآن ذى الذكر** » أو « **ق والقرآن المجيد** » أو « **ن والقلم وما يسطرون** » .

آراء الأقدمين من المسلمين :

أما بعد الاشارة الى تلك الطوابع المميزة للفواتح ، فاننا نجمل آراء علماء الاسلام فيها فيما يلى :

ذهب فريق من علماء السلف المتزمتين الى أن فواتح السور مما استأثر الله بعلمه ؛ ولذا يحظر الخوض فيه على نحو من الأنحاء .

واتجه فريق آخر الى أن محاولة الاجتهاد فى كشف معانيها وفهم مراميها واجبة شرعا للوقوف على أسرارها والانتفاع بها تحقيقا للهدف الذى رمى اليه القرآن من ذكرها ، والا فلو أراد الله أن تبقى مخبوءة لكان من العبث الاكثار من ذكرها الى هذا الحد الذى بلغ تسعا وعشرين مرة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولقد تفرع هذا الفريق الذى أوجب الاجتهاد فى تعقب مراميها الى فروع كثيرة ، اذ قد أنبأنا الطبرى ان تراجمة القراء قد اختلفوا فى قول الله تعالى « الم » فقال بعضهم : هو اسم من أسماء القرآن ، وقال بعضهم : هو اسم للسورة التى يفتتح بها ، وقال بعضهم : هو اسم الله الأعظم، وقال بعضهم : هى قسم أقسمه الله بها ، وهو من بين أسمائه، وقال بعضهم : هى حروف مقطعة من أسماء وأفعال كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر ، وقال بعضهم : هى حروف هجاء موضوع ، وقال بعضهم: هى حروف يشتمل كل حرف من ذلك على معان شتى مختلفة ، وقال بعضهم : لكل كتاب سر ، وسر القرآن فواتحه .

وقد استند الطبرى وابن كثير فى القول بأسرار الفواتح الى حديث رفعا سنده الى أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى « ألم » قال : هذه الأحرف الثلاثة من الأحرف التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الألسن كلها منها حرف ألا وهو مفتاح اسم من أسمائه وليس منها اسم الا وهو من آلائه وولائه . وليس منها حرف ألا وهو فى مدة أقوام وآجالهم .

وهناك فريق كان أجرأ وأصرح ، فقرر أن الألف رمز للفظ الجلالة (الله) واللام رمز للطيف ، والميم رمز للمجيد ، أو أن الألف واللام رمز

للفظ الجلالة والراء رمز للرحمن ، والميم رمز للرحيم ، أو أن الألف من قوله تعالى « المص » رمز لكلمة « أنا » واللام رمز لله ، والميم رمز لـكلمة اعلم ، والصاد رمز لكلمة افصل فتكون المص « اختصار العبارة :انا الله أعلم وأفصل . وقد أرجع الرازى اساس هذا التأويل الى ابن عباس .

وكذلك أعلن البعض ان « ق » رمز لجبل « ق » أو للقرآن .

ولسنا ندرى كيف يكون معنى الآية الكريمة « ق » والقــرآن المجيد » عند صاحب هذا الرأى الأخير ؟ هل يكون معناها أقسم بالقرآن والقرآن المجيد ؟ لعمر الحق !!

هـــذا كـــلام له خبيء ‏ ‏ معناه ليست لنا عقول !

وفى الحق ان هذه التأويلات قد بلغت من الفروض والتخمينـات حد الأخيـلة والأحلام التى استوجبت ، فى العصور القـديمة ، سخرية الباقلانى وأمثاله من ذوى العقول الراجحة ، واستهزاءهم بها وبأصحابها، كما استوجبت ، ولا تزال تستوجب فى العصر الحديث من الســـخرية اكثر مما كان لدى الأقدمين .

ونحن نود أن نختتم سلسلة هذه الفروض القديمة بذلك التأويل الذى رواه لنا السيوطى فى فاتحة سورة (طه) « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» أذ يقول : «ان حرف الطاء يقابله فى الجمل عدد ٩» والهاءيقابله عدد ٥ ومجموع هذين العددين ١٤ وهو الليلة التى يبلغ فيها البدر تمامه فتكون كلمة « طه » رمزا لقوله يابدر « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .

ونحن نحســـب أن مافى هـــذا التأويل من التعمل وتحميل الآية الكريمة مالا تطيق شىء لا يخفى على أحد من ذوى العقليات الراجحة .

غير أن الباحث العصرى كثيرا مايلتقى فى دراسة هذا التراث المجيد بأفراد ممتازين يتعقبون الحقيقة فى مكامنها ولايقرءون دون بحث أو تحقيق كالباقلانى والغزالى والرازى وأمثالهم . ومنهم من يرتاب فى رواية من لم تثبت عدالته ويحتاط فى نقله ، بل يتزمت الى أبعد الحدود الممكنة . ومن هذا الفريق الأخير الشيخ الألوسى المفسر الملم البعيد الأفق ، الواسع الاطلاع . وهاك طرفا موجزا مما يحدثنا به فى شأن فواتح السور نقلا عن امام العارفين الاستاذ الاكبر محيى الدين بن عربى فيقول :

« وقد تكلم الشيخ الآكبر قدس سره على سر عـدد حروفها (أى فواتح السور) بالتكرار وعدد حروفها بغير تكرار ، وعلى جملتها فى

السور ، وعلى افرادها فى (ص) و (ق) و (ن) وتثنيتها فى « يس » و « طه » وأخواتهما ، وجمعها من ثلاثة فصاعدا ولم بلغت خمسة حروف ؟ ولم وصل بعضها وقطع بعضها فقال قدس سره فى « فتوحاته » أعاد الله تعالى علينا من طيب نفحاته ما حاصله :

اعلم أن مبادىء السور المجهـولة لا يعلم حقيقتها الا أهل الصور المعقولة ، فجعلها تبارك وتعالى تسعا وعشرين سورة وهو كمال الصورة والقمر قدرناه منازل • والتاسع والعشرون القطب الذى به قوام الفلك ، وهو علة وجوده ، وهو سورة آل عمران الم الله : ولولا ذلك ماثبتت الثمانية والعشرون ، وجملتها على تكرار الحروف ثمانية وسبعون حرفا ، فالثمانية حقيقة البضع • قال صلى الله تعالى عليه وسلم: « الايمان بضع وسبعون » وهذه الحروف ثمانية وسبعون ، فلا يكمل عبد أسرار الايمان حتى يعلم حقائق هذه الحروف فى سورها كما أنه اذا علمها من غير تكرار علم تنبيه الله فيها على حقيقة الايجاد وتفرد القديم سبحانه وتعالى بصفاته الأزلية ، فأرسلها فى قرآنه أربعة عشر حرفا مفردة مبهمة ••• واذا علمت أن هذه الفواتح هى السر الأعظم والبحر الخضم والنور الأتم •

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا　　　ونور ولا نار وروح ولا جسم

فاعلم أن كل ماذكر الناس فيها ، رشفة من بحار معانيها ومن ادعى قصرا فمن قصوره ، أو زعم أنه أتى بكثير فمن قلة نوره ، والعارف يقول باندماج جميع ماذكروه فى صدف فرائدها ، وامتزاج سائر ماسطروه فى طماطم فوائدها• فان شئت فقل، كما أنها مشتملة على هاتيك الاسرار يشير كل حرف منها الى اسم من أسمائه تعالى ، وآن شئت فقل أتى بها هكذا لتكون كالايقاظ وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن •

وان شئت فقل جاءت كذلك ليكون مطلع مايتلى عليهم مستقلا بضرب من الغرابة أنموذجا لما فى الباقى من فنون الاعجاز ، فان النطق بأنفس الحروف فى تضاعيف الكلام ، وان كان على طرف التمام يتناوله الخواص والعوام ، لكن التلفظ بأسمائها انما يتأتى عن درس وخط • وأما من لم يحم حول ذلك فأعز من بيض الأنوق ، وأبعد من مناط العيوق ، ولاسيما اذا كان على نمط عجيب ، وأسلوب غريب ، منبىء عن سر سرى ، مبنى على نهج عبقرى ، بحيث يحار فيه أرباب العقول، ويعجز عن ادراكه ألباب الفحول •

وان شئت فقل فيها جلب لاصغاء الأذهان ، والجام كل من يغلو من الكفار عند نزول القرآن لأنهم اذا سمعوا مالم يفهموه من هذا النمط العجيب تركوا اللغط وتوفرت دواعيهم للنظر فى الأمر المناسب بين حروف الهجاء التى جاءت مقطعة ومايجاورها من الكلم رجاء أنه ربما جاء كلام يفسر ذلك المبهم ، ويوضح ذلك المشكل • وفى ذلك رد شر كثير من عنادهم وعتوهم ولغوهم الذى كان اذ ذاك يظهر منهم • وفى ذلك رحمة منه تعالى للمؤمنين ، ومنة للمستبصرين •

وان شئت فقل ان بعض مركباتها بالمعنى الذى يفهمه أهل الله تعالى منها يصح اطلاقه عليه سبحانه فيجرى ماروى عن على كرم الله وجهه أنه قال : : ياكهيعص • وياحمعسق على ظاهره ، وان أبيت فقل : المراد يامنزلهما • وان شئت فقل غير ذلك • حدث عن البحر ولا حرج ، وعندى فيما نحن فيه لطائف • وسبحان من لا تتناهى أسرار كلامه ، فقد أشار سبحانه بمفتتح الفاتحة حيث أتى به واضحا الى اسمه الظاهر وبمبدأ سورة البقرة الى اسمه الباطن فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن • وأشار بتقديم الأول الى أن الظاهر مقدم ، وبه عموم البعثة ، نحن نحكم بالظاهر ، والله تعالى يتولى السرائر •

وأيضا فى الأول اشارة الى مقام الجمع ، وفى الثانى رمز الى الفرق بعد الجمع ، وأيضا فى الحروف رمز الى ثلاثة أشياء : فالألف الى الشريعة ، واللام الى الطريقة والميم الى الحقيقة • فهناك يكون البعد كالدائرة نهايتها عين بدايتها وهو مقام الفناء فى الله تعالى بالكلية •

آراء المستشرقين :

تصل الأوهام حقا عند بعض المستشرقين الى درجة تتجاوز كل فكر معروف ، بل كل حد مألوف ، وفى الحق أن الباحث يتعب كثيرا حين يتعقب هؤلاء الواهمين الذين لا يبنــون فروضهم على دعـــائم معقولة ، ولا يعتمدون فى نظرياتهم على أسس منطقية ، وانما حسبهم أن يحلقوا فى سماء الأحلام ، وان يتصيدوا الأوهام لأدنى شبهة ، أو أضأل ملابسة وأوهى علاقة ، ولو كانت مكونة من خيوط بيت العنكبوت • يتعب الباحث اذا تعقب هؤلاء وأراد أن يلزمهم الحجة ، لأنه لا يجــد أمامه مستندا يناقشه ، ولا معتمدا يهاجمه ، وانما يجد أحلاما وأوهاما !

ومن أمثلة هؤ المستشرقين الاستاذ لوت الذى يتصور أن النبى

مدين بفكرة الفواتح لتأثير أجنبي ، وهو يرجح أنه تأثير يهودي ، وما ذلك الا لأنه ـ لفرط جهله وسطحيته ـ يتصور ان السور التي بدئت بالفواتح مدنية خضع فيها الرسول لتأثير اليهود . وقد فاته أن سبعا وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية ، وليس بينها من السور المدنية سوى اثنتين ، وهما سورتا البقرة وآل عمران ، ولكنه الجهل وكفى بذلك وبالا .

ومن هؤلاء الواهمين أيضا المستشرق « نولديك » الذي يقرر في كتابه « تاريخ القرآن » الذي نشر في سنة ١٩١٩ أن تلك الفواتح ليست من القرآن في شيء ، وانما هي رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يوحد المصحف العثماني : فمثلا حرف الميم كان رمزا لصحف المغيرة ، والهاء كانت رمزا لصحف أبي هريرة ، والصاد كانت رمزا لصحف سعد بن أبي وقاص ، والنون رمزا لصحف عثمان ، وما الى ذلك . واذن فهي ليست سوى اشارات لملكية الصحف تركت في مواضعها بدافع النسيان ، أو الاهمال ، أو عدم اليقظة ، ثم ألحقها طول الزمن بالقرآن فصارت قرآنا !

ومن العجب العجاب أن المستشرقين ، هيرشفيلد ، وبول ـ قد اندفعا الى محاكاة نولديك وأشادا بنظريته هذه برغم أنه اقتنع بخطئه فيما بعد ، وعدل عنها ، وقد رد على هذا الرأى الخاطىء لوت ، وبوير بأنهما لا يستسيغان أن أولئك المسلمين الأتقياء الذين نسخوا المصاحف يقبلون أن يضيفوا الى كلام الله ما ليس منه ، أو أن يقروا اضافته اليه . وهما يجزمان بأنه لا يتصور عاقل أن أولئك الأعلام الأدقاء الذين كلفوا جمع المصحف الأخير يمكن أن يجيزوا انضمام رموز بشرية الى كتاب الله أو أن يستبقوا فيما كلفوا مراجعته رموزا لمعاصريهم .

هاتان النظريتان هما أخطر ماقذف به المستشرقون في ميدان فواتح السور من عدوان على العلم وافتئات على الحق قبل أن يكون عدوانا على الاسلام وافتئاتا على القرآن !

أما بعد هاتين النظريتين فلهم حول هذه المسألة كثير من الآراء الفجة التي هي مدعاة للسخرية ، كبعض آراء قدماء المسلمين الذين نوهنا الى أن ذوي العقول الممتازة كانوا يسخرون منها ، ولكن تلك الآراء ـ على مابها من سطحية ـ ليس فيها من الطعن على مقدسات الاسلام مافي سابقتيها .

ومن هذه الآراء أن المستشرق « اسبرانجيو » اذ يرى أن « طسم » ـ لكى تفهم ـ يجب أن تقلب لتكون رمزا لقول القرآن : « لا يمسه الا المطهرون أو أن السين تشير الى سيناء ، والميم تشير الى موسى ، لأن هذه السورة تتحدث عن موسى وطور سينين • وكذلك « حم » تشير الى جهنم ، ولعلها تبتدىء بحرف الجيم الذى يشبه الحاء تماما ، فاختلط ذلك على العرب فنطقوه حاء ، وهو فى الحقيقة جيم اشارة الى جهنم • ونحن لايسعنا أن نعلق على هذا الرأى بأكثر من أنه يستوجب الضحك حتى فى الأوقات التى يتعسر فيها الضحك ويعز الابتسام !

أما الاستاذ « بلاشير » ـ وهو أحد المستشرقين المعاصرين المعتدلين ، وقد ترجم القرآن ترجمة لا بأس بها ـ فانه بعد أن يستعرض كثيرا من هذه الآراء يقول :

« واذن فينبغى الرجوع الى نظريات المسلمين الأولين ، والاستمساك بالآراء التى سردها الطبرى والتى يرى أدقها أن هذه الفواتح انما هى اختصارات لأسماء الهية ، ومن أمثلة ذلك أن فاتحتى « المر » و « ن » اختصار لاسم الرحمن •

ولكن حيرة المستشرقين هنا أيضا لا تلبث أن تعود سيرتها الأولى ، اذ هو يتساءل قائلا : « ولكن ماذا تمثل فاتحة « الم » ؟ هل تمثل اسم الرحيم ؟ هذا ممكن ، ولكن لماذا لا تكون اختصارا لذلك التعبير العربى : « اللهم » ؟ ولماذا لا تكون فاتحة « حم » اختصارا للآية الأولى من فاتحة الكتاب ، وهى « الحمد لله رب العالمين » ؟

ولا ريب أن هذا المستشرق المعتدل يحس بتعثره وتعثر أسلافه ومعاصريه من المستشرقين وتخبطهم فى فروضهم تخبط الناقة العشواء ، كما يقول العرب ، ويشعر بأن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، وهو لهذا يصف كل تلك النظريات بأنها استبدادية غير مبنية على أسس من اليقين ، ولا تستطيع احداها ابعاد الاخريات عن ميدان الجدل والنقاش • وفوق ذلك هو يتساءل عما عسى أن يكون قد اختبأ من الأسرار وراء هذه الصور الخفية : كـ « طه » و « طسم » و « كهيعص » •

ونحن نستشف من هذه العبارة الأخيرة أنه لم يكن لديه كبير أمل فى اكتناه هذا السر العميق ، وهو فى هذا يقول : « ان أتقياء المسلمين الذين رأوا من العبث محاولة سبر أغوار هذه الأسرار كانوا وحدهم هم الحكماء » •

رأينا الخاص :

ونحن ــ مع احترامنا لهذا المستشرق المعتدل القليل الأخطاء ــ نخالفه فى رأيه مستمسكين بما أسلفناه من آن العليم الحكيم لو كان يرضيه أن تظل هذه الرموز مخبوءة ما أكثر من ذكرها هذا الاكثار الوافر ٠ واذن فنحن من أنصار محاولة كشف النقاب عن هذه الرموز ٠

وسيرا على هذا المنهج نستطيع أن نعلن غير مترددين أن هذه الفواتح رموزا لأسماء الهية لها أسرار خفية ، ذات خواص خطيرة ، ترتبط بدوران الكواكب فى محاورها ، وعلائقها بالأنظمة الكونية ، والسنن الناموسية ، وحظوظ أهل الارض وغيرهم ممن عسى أن يكونوا على الكواكب الأخرى وان من تتيح له الاقدار معرفة شيء من هذه الاسرار يوكل اليه التصرف فى شيء من تلك الانظمة ويظفر بجانب محدود من المساهمة فى تسيير الحظوظ والمصاير الى غاياتها المحتومة تنفيذا لتقدير العزيز العليم ٠

وليس ذلك من القاء الكلام على عواهنه، كما فعل المستشرقون ، وانما هو رأى مؤسس على دعائم المنطق المنتزع من أخص عناصر الموضوع ذاته ، فنحن اذا نظرنا الى تلك الفواتح ألفيناها ناطقة بما نقول ، ولكن فى لغة تدق على الكافة ، وتعزب عن الجماهير ٠

ومن آيات ذلك قوله جل جلاله : (**حمعسق كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم**) فقوله كذلك يوحى اليك ٠٠٠ الخ ، فيه اشارة الى متقدم ولم يتقدم هنا سوى كلمة « حم عسق » التى أوحى الله أسرارها الى بعض أنبيائه ثم اتخذها مثالا لقياس غيرها عليها ٠

وكذلك قوله : « الم ذلك الكتاب لاريب فيه » فكلمة « ذلك » هنا ــ برغم مايقوله أكثر المفسرين ــ تشير الى « الم » ويكون معناها ذلك سر الكتاب الذى لاريب فيه ٠ أو أحد أسراره التى لا تحصى لأنها صادرة عن اللامتناهى ٠

ومن ذلك أيضا قوله « يس والقرآن الحكيم » أو « ص والقرآن ذى الذكر » أو « ق والقرآن المجيد » أو « ن والقلم ومايسطرون » فهذه كلها تشعر فى روحها ومعانيها ونصوصها اشعارا تام النواحى كامل الجوانب بأن هذه أسماء الهية « عظمى » جديرة بالقسم الربانى وبالصدارة على القرآن الحكيم أو القرآن ذى الذكر أو القرآن المجيد ٠ وليس قمينا بالأسبقية على القرآن الا اسم منزله ٠

ومما يدعو الى التفكير فى هذا الأمر ويستدعى الانتبـــاه اليه هو مانوهنا عنه عند حديثنا عن الطوابع المميزة للفواتح من أن لها أربع عشرة صورة ، وانها تدور كلها فى اطار أربعة عشر حرفا تجمعها هذه العبارة التى لم يكن تركيبها عبثا ولا مصادفة ، ولا دجلا ، ولا تعملا من باب تحميل العبارات مالا تطيق ، ولم تنشأ تلفيقا ولا توفيقا مع الفواتح ، وانما تلك الفواتح قد انحصرت فيها بطبيعة تكوينها ، وهى عبارة « نص حكيم قاطع له سر » ومعناها أن هذا نص من نصوص الحكيم القاطعة المشتملة على سر .

ومما هو خليق بالذكر هنا أن جميع حروف فواتح السور نجدها فى فاتحة الكتاب . ومن ذلك أيضا أن علماء العلوم الخفية اتفقوا على أن الحروف الهجائية قسمان : أولهما حروف النور المتعلقة بالأمور العلوية ، والآخر حروف الظلمة المتعلقة بالأمور السفلية ، وان جميع حروف فواتح السور هى حروف النور كلها وليس منها حرف واحد من حروف الظلمة ، ولولا أن الافاضة فى هذا الجانب بعد الذى قدمناه يمكن أن تقحم بعض القارئين فى شئون فنية رمزية غامضة تدق على فهمه لتابعنا السير فى هذا الطريق مراحل أخرى ، ولكن حسبنا هذا الآن ولله عاقبة الأمور .

المستشرقون وبعض الرموز الاسلامية

تمهـــيد :

تصدى كثير من الباحثين الأوربيين للاســـلام بالبســط والشرح والتحليل والتوجيه والاستنباط . ولكن عددا غير يسير من أولئك الباحثين قد أذعنوا لعاطفة التعصب ، فاقتادتهم أهواء التحيز الى طرق ملتوية مملوءة بالأشواك يزيد بعدها عن العدالة والنزاهة بقدر مايمعن أولئك العلماء فى الخضوع لغاياتهم الخاصة ومنافعهم الفردية ٠

ولقد أضلت المطامع الحائلة هذا النفر من المثقفين ، فجعلوا يتحاملون على الاسلام دون ذنب اقترفه وجناية جناها ، وأخذوا يتصيدون ــ للكيد له ، والحط من شأنه ــ توافه الأمور التى قد تبدو على ظواهرها للوهلة الاولى انها هنات ، ولكن التعمق فى جميع مناحيها لا يلبث أن يمحو من النفوس ذلك الوهم السطحى السريع ٠

وأكثر من ذلك آن أولئك القوم ينقمون أحيانا على هذا الدين مايثبت العقل السليم ، والمنطق القويم والمقياس الاجتماعى الصحيح ــ انه مبعث هناء الانســـانية ، ومصــــدر سعادتها ، آو أنه هو المنقذ الوحيد لها من وهدتها ٠

ولا جرم أن هذه الشرذمة من الباحثين قد طبعت فى هذا العصر بطابع الاستهانة والاهمال من جميع الذين يحترمون حكم العقل ، ويوقنون بأن النزاهة أولى بالاجلال ، وأدنى الى الخلود ٠

وهناك فريق آخر من العلماء قد عرضوا للاسلام تحدق بهم النزاهة ، ويحف بهم نبل المقصد ، ويحدوهم الأمل في الوصول الى كشف بعض الحقائق المجهولة لدى بيئاتهم ، ولكنهم انزلقوا الى حضيض الهفوات ، وهووا فى سحيق الكبوات ، برغم نقاء نياتهم ، وسمو غاياتهم . وسر ذلك الاخفاق ، اما أن يكون هو الجهل بروح اللغة العربية ، والقصور عن ادراك مراميهـا ، واما الاعتماد على مصـادر زائفة ، مملوءة بالأباطيل والأضاليل .

وأيا ماكان فان هذا الباحث الذى سنعنى هنا ببسط آرائه عن الاسلام ونناقشها فى ضوء المنطق حينا ، ونتحاكم واياه فيها الى التاريخ حينا آخر ، هو « دينيس سورا » الاستاذ فى جامعة لندن ، وهو عالم من أفراد الفريق الأخير الذى ثبت لدينا حسن نيته بهيئة قاطعة بعد أن درسنا منتجاته ، وتعقبنا آراءه وأفكاره ، فألفينا أنه ينظر الى الاسلام بالعين التى ينظر بها الى المسيحية والاسرائيلية ، وأنه يستعمل فى حديثه عن القرآن العبارات نفسها والصـيغ التى ينحدث بها عن الانجيل والتوراة .

وقصارى القول فى هذا الشأن أن هذا الفريق اذا حاد عن محجة الصواب فيما يتعلق بالدين الحنيف ، فان ذلك يكون من جانبه خطأ لا خبثا ، وجهلا لا شرا .

والآن اليك كيف ينظر الى الاسلام فى كتابه « تاريخ الأديان » الذى نشر فى سنة ١٩٣٣ ، ولكن قبل أن نعرض لبسط آراء هذا العالم ينبغى أن نقرر أنه يجب على كل باحث قبـل أن يحـوض فى شرح مذهب من المذاهب ، أو فى تحليل آراء عالم من العلماء ان يتبين قبل كل شيء المبادىء التى يؤسس عليها ذلك العالم دعائم مذهبه ، ليسير فى توجيهاته وأحكامه فى ضوء المعرفة الصحيحة لما هو بصدده من آراء وأفكار .

ونحن اذا سايرنا هذا الناموس العلمى ـ ولابد لنا من مسايرته ـ فانه يتحتم علينا أن نسجل هنا أن هذا الباحث يصدر فى آرائه عن مبدأين أساسيين :

الأول أن تاريخ الأديان انما هو تاريخ لنمو تينك الرغبتين البشريتين المتأصلتين فى نفوس أفراد الجنس جميعه . وهما الحاجة الى وجود اله ، والحاجة الى الحياة بعد الموت الدنيوى .

والآخر هو أننا الآن فى عصر علمى لا يستطيع الناس فيه أن يقبلوا

« من كتاب سماوى » الا ماتقدم اليهم التجربة والملاحظة من الأدلة على صحته ·

ونحن اذا قبلنا المبدأ الأول على أنه لازم ركزته الحكمة الالهية فى النفوس البشرية لتعدها للتأليه اعدادا فطريا كى يفوق فى اعداده جميع الاعدادات الاجتماعية · لان العارض لا يرقى فى الكمال الى درجة المتأصل فان الذى لا ريب فيه ، هو أننا لانستطيع قبول المبدأ الآخر الذى صدرعنه هذا الباحث فى تفكيره ، لأنه فيما نرى خاطىء من أساسه ، اذ أنه يرمى الى هدف خطير ، وهو احلال مايدعوه بالعقل التجريبى محل العقل الانسانى فى ذاته ، أو العقل من حيث هو · ولاريب ان هذا الرأى ـ فضلا عن أنه فج سطحى ـ اقرار العلم التجريبى على كل ما عداه من جوانب الحيـاة الفكرية والروحية· وفى هذا من الخطأ ما لا يخفى على ذى لب حصيف ، اذ كيف يجحد من لديه مسكة من العقل ذلك الدور الهائل الذى قام به الفكر البشرى الذاتى فى أثناء هذه الآلاف من السنين التى انسلخت من عمر الزمن قبل أن يرى العلم التجريبى نور الوجود ؟

أما الرأى المعتدل فى هذا الشأن فهو انه اذا كان العلم التجـريبى قد استولى على بعض جوانب العقل الانســانى فان الذى لا مشاحة فيه بحال هو أنه لم يستوعب كل جوانبه ، فضلا عن أنه يمحو كيانه الذاتى الاول ، ويستبدل به كيـانا جديدا يدعى بالعقــل العلمى الذى لا يتلقى شيئا آتيا عن أى طريق آخر ، غير طريق الملاحظة والتجربة ، وانما الحق فى هذه النظرية هو أن الجانب العلمى من جوانب العقل البشرى الذاتى ملكة تنشأ فيه ، وتنمو كغيرها من الملكات ، لانه كما أن الموجود المطلق أعظم كثيرا من الموجود المحدود الذى يدركه العلم التجريبى ، كذلك العقل المطلق أعظم من الملكة الخاصة بادراك نتائج الملاحظة والتجربة ·

ومهما يكن من شىء فان الذى يبدو لنا جليا من روح هذا الباحث أنه وضعى النزعة ، تجريبى التفكير ، وتلك وجهة نظر تختلف فى أسسها ومراميها مع مبادىء جميع الديانات التى تقرر أن الاله لا يناله الحس بأية حال ، وانه مع ذلك أثبت الموجودات ، وهذا يكفى أن نعد هــذا الباحث عالما تجريبيا محايدا لا يروقه من الاديان الا ما تشتمل عليه من مبادىء خلقية نافعة ، أو قواعد اجتماعية مفيدة للانسانية · واذا كان الاســلام أكثر الاديان اشتمالا على هذه المبادىء القوية والاسس المتينة ، فقد كان

من الطبيعى أن يظفر لدى هذا النوع من العلماء بأعلى الدرجات الا فى حالة الخطأ التى تحيد بهم عن الصراط المستقيم ٠

ومن آيات ذلك رجحان كفة الاسلام فى نظر العلماء المحايدين الذين لا يلتفتون الا الى الجوانب الخلقية والعمرانية من الدين ، ان هذا الباحث يبدأ حديثه عن الاسلام بقوله :

« ان محمدا يكاد يكون هو الوحيـد الذى نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسى الاديان ، اذ ان الخرافات لم تستطع أن تخفيه ٠٠ وان دين مواطنيه ابان ظهوره كان قد هوى الى أدنى الدركات أو أقل ٠ انه كان لميما من بقـايا عقائد بدائية قد نفككت عنـدما ارتقت الحياة الاجتماعية فى الامم التى كانت تدين بها ولم يبق فيها راكد سوى الدين٠ ولا غرو فقد كان العرب يعبدون الجن والارواح التى تقطن الاحجار الى جانب عدد من آلهة القبائل المختلفة ٠ ولقد محا الاسلام هذا كله ، ولم يبق منه سوى الحجر الاسود ، فقد ظل موطن القداسة الجوهرية ، اذ وضعه محمد تحت حماية الخليـل ابراهيم ٠ ومن الممـكن أن تكون هذه سياسة قصد بها التوفيق ، كما يمكن أن يكون ذلك ناشـئا من احترام شخصى ٠

« شعيرة الحجر الاسود »

نحن نرى ان هذا الباحث قد بدأ حديثه في اعتدال واستقامة ، حينما كان الطريق أمامه واضحا معبدا ، ولكنه عندما وصل الى الحجر الاسود كان الأفق تلبد بقاتم السحب ، فساد الظلام • وسرعان ما ضل صاحبنا الطريق ، فلم يستطع السير الى الامام ولا الرجوع الى الخلف ، فوقف حائر اللب ، خائر القوى ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ويسلم نفسه للفروض والاوهام ، ويرسل قلمه باحثا عن الممكن تارة ، وعن المحتمل تارة أخرى ، ولكن عذره في ذلك واضح ، وهو أن الحجر الاسود كاد ـ في كثير من المواقف ـ يكون سببا في تبلبل عقول بعض المسلمين ، وتزلزل عقائدهم لولا ان فوضوا الامر في شأنه الى فاطر السماوات والارض معلنين أنه حجر لا ينفع ولا يضر ، وأنه من السمعيات التي وجب علينا تنفيذها وغربت عن عقولنا حكمتها •

ولا شك أن في ذلك عذرا لأجنبي كباحثنا هذا ، اذ أن عددا ضخما من الاعتراضات قد وجه الى هذه الشعيرة منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الى اليوم : فأبو العلاء المعرى وصفها بأنها « بقية أوثان وأنصاب » •

وغيره نعتها بأنها أحد تقاليد قريش الاثرية المتفق عليها من الجميع اتفاقا منحها من المتانة والقوة قدرا لم يجرؤ معه النبى على محوها •

وزعم فريق ثالث أن النبى قد احتفظ بهذا الحجر وأمر بتعظيمه تخليدا لذكرى جده ابراهيم •

وادعى فريق رابع أنه تصوير لهبوط آدم من الجنة •

ورأى فريق خامس أنه أحد أحجار الفردوس ، هو لأمر ما في هذا

المكان وكان يوم هويه لؤلؤة بيضاء ، وقد امر الناس منذ آدم أو منذ ابراهيم أن يمسوه لتنتقل اليه خطاياهم وآثامهم ، وهذه الآثام هي التى صيرته على مر الزمن اسود ، ولما كان وسيطا فى تطهرنا من آثامنا واحتمالها عنا فقد أمر النبى بتقبيله اشارة الى عرفان الجميل !

ونحن لا نستطيع أن نؤمن برأى من هذه الآراء ، لاننا لا نجد بينها ما يرضى الشك ، ولا يقنع اليقين • ولما كنا نعلم أن الاسلام ليس دين مظاهر خارجية فحسب ، وان كل جانب من جوانبه المتعددة مشتمل على رموز لا تحصى ، وأسرار لا تندرج تحت العد ، لانها صادرة عن الذى لا يتناهى ، وما يصدر من المعنويات عن الذى لا يتناهى ، لا يتناهى •

لما كنا مؤمنين بهذا أتم الايمان وأصدقه ـ فاننا نستطيع أن نجزم بأن هذا الحجر الاسود رمز لسر الهى علم الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يدق عن عقول الكافة من المسلمين فى ذلك الحين ، فاقتضت الحكمة ألا يكشف لهم عنه ، كما اقتضت الحكمة الالهية ألا تكتشف لهم أسرار الروح فاجابهم القرآن عن سؤالهم بقوله : «**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا** » •

ولا جرم أن فى صياغة الآية على هذا النحو اشارة الى أنهم قد يجابون عن هذا السؤال عندما يتحقق لديهم من العلم القدر الكافى لفهمهم تلك الاجابة ، ومما لا سبيل الى الشك فيه أن الخطاب ليس مقصورا على أهل زمان محدود ، أو مكان معين ، لان مرامى القرآن أعظم من أن تحد •

ومما يحسن الاستئناس به فى هذا الصدد أن نجمل هنا كتابا عالج فيه مؤلفة طائفة من الرموز التى فى أسرار الدينين : الاسلامى والمسيحى ، وأشار الى رمز الحجر الاسود بالذات ، وأسند القدح المعلى فى ميدان الرمز الى الاسلام وحده ، وشهد له بالقيادة والارشاد ، وقد جعل عنوانه « الاسلام والجرال » وقد أشرنا الى هذا الكتاب آنفا • واليك اجمال هذه الفكرة :

الجرال شىء مادى يرمز الى سر خطير مقدس • وهذا الشىء المادى ـ عند فريق من الباحثين الرمزيين ـ حجر نفيس نزل من السماء الى الارض بوساطة الملائكة ، وهذا المعنى هو الذى سيعنينا هنا من الحيثية الاسلامية التى يعرض لها ذلك الفريق ، واليك البيان :

فى أواخر القرن الثانى عشر ظهرت بغتة فى أوربا ثلاث أقاصيص تعالج موضوعا واحدا ، وهو التنقيب عن « الجرال المقدس » •

وتحدثنا هذه الاقاصيص أن ذلك الجرال مودع بطريقة غامضة فى قصر خفى فى شـــاهق جبل يحرسه عدد من الفرســـان توافرت فيهم الفضيلة • ولقد اتفق مؤلفو هذه الاقاصيص الثلاث على أنهم ليسوا سوى مؤولين أمناء لرواية مأثورة ظلت الى ذلك الحين شفوية ، وهى راجعة الى أصل سماوى • ومنذ ذلك العهد ظل لغز الجرال يكتنفه شىء من الغموض يتفاوت كثرة وقلة ، ولم يتضح قط تمام الاتضاح • ومما لا ريب فيه أن المعنى الرمزى لهذا الجرال محقق ، ولكن الافتراضات كثيرة : فعند البعض أن هذا الجرال رمز للغوث الالهى ، وعنـد الآخرين رمز لنهج صوفى معين » •

ويذكر لنا الاستاذ « بيير بونسواى » مؤلف كتاب «الاسلام والجرال» تأويلا جديدا مؤسسا على معارف اقتبسها من مؤلفات المغفور له الاستاذ « رينيه جينون » أو الشيخ عبد الواحد يحيى الذى أسلم وحسن اسلامه وكتب عن الاسلام صفحات خالدة مفعمة بالجلال ، والذى أهدى المؤلف الى روحه هذا الكتاب • ومن المنابع التى انتهل منها مؤلفنا فى هذا التأويل أيضا كتب الشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى وابن مسرة والجيلى •

ومما يسترعى الانتباه هنا أن مؤلفنا يعنى على الاخص بالاقصوصة الثالثة التى كتبها المؤلف الالمانى « فولفرام فون ايشانباك » لانها أكمل الأقاصيص الثلاث وأكثرها اشتمالا على العناصر الاسلامية أو التى تمت الى الاسلام بصلة وثيقة والتى يبدو أن مؤلفى الاقصوصتين الاخريين قد أخفياها قصدا ولا سيما أن فولفرام يتهم علنـــا أحد سالفيه بأن أتلف الاقصوصة أو شوهها على أقل تقدير •

يرى الاستاذ « بيير بونسواى » أن الجرال رمز للوجود الالهى على الارض وان البحث عن سر ذلك الجرال طريق صوفى للوصول الى كنه الحياة الكونية ، وان الظفر به هو الشهود الالهى •

ولما كانت الصورة الرمزية الخفية التى كتبت بها هذه الاقصوصة الاخيرة تمثلها لنا مستقلة عن تعـــاليم الكنيســـة من جهة ، وكان العالم المسيحى يجهل المكان الخفى الذى فيه الجرال فى الغرب من جهة أخرى ، فان هذا الاستاذ يستنتج أن منبع هذه الاقصوصة ليس مسيحيا ، وانما هو يرى انها بعث غربى للتيار الـكونى الفطرى الذى اختفى أصله فى غيـــاهب الزمن ، وعز مناله على الذاكرة البشرية ، وانه يتعلق بالسر الجوهرى لكل وحى حقيقى ، أى سر معرفة الاله والمساهمة فى العرفان السماوى •

ومما لا سبيل الى الشك فيه اليـوم انه كان في العصور الوسيطة وئام روحى وتعاليم خفية بين الصفوة الاسلامية والمســيحية واليهودية ، وان الاســلام قد قام فى أثنـاء عدة قرون فى هـذا الوئام بدور الملهم والمرشد(١) وان تلك الصفوة ـ على اختلاف أديانها فى الظاهر ـ كانت مقتنعة برسالة الاسلام فى هذا المضمار · « قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شـيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله (٢) » ·

ولقد كانت هذه الصفوة تنظر الى الاســلام على انه جماع النبوة العــالمية ، وانه هو النبوة التشريعية الاخيرة التى ستسود قبل نهـاية الزمن · وان النبى محمدا هو خاتم النبيين ، وانه تلقى من السماء جوامع الكلم ، ومن ثم فان الاسلام يشتمل على وسائل روحية لأنواع من التجاوب الخاص مع الصــور الفطرية الاخرى التى تدخل مع مؤسسيها كموسى وعيسى فى نظام اسلامى كلى رفيع من أنظمة الكون ، ومن ثم أيضا كان الاسلام هو الوسيط الكونى ·

وعند مؤلفنا أن الذى يبدو جليا من نصوص «فولفرام» الالمانى هو أن الاسلام كان فى وقت معين هو المختـار للرسـالة والمعين ـ من قبل الممثلين المختصين العالميين بالحـكمة والفطرة الكونية ـ لكى يتـولى مع المسيحية واليهودية مهمة اعادة التشييد الروحى الذى يبـدو أن أحد مظاهره الاساسية انما هو اعادة تثبيت رابط واضح متين بين الغرب والشرق الذى هو المركز الروحى للعالم ·

هذا هو المعنى المختبىء فى أقصوصة الجرال · ومجمله أن الاسلام هو الذى قدم الى المسيحية معونة خفية سـمحت للجرال الذى هو رمز الوجود الالهى المختبىء فى قلب كل فطرة حقيقية بأن يتفتح فى الغرب على صورة جلية ردحا من الزمن لعله يهتدى ·

واليك الآن كيف أن مؤلف هذا الكتاب يؤول أقصوصة « فولفرام » الالمانى ، كى يثبت تلك المعونة التى قدمها الاسلام الى المسيحية ، ويبين الاتساق بين العناصر الاسلامية التى تشتمل عليها تلك الاقصوصة والرمز الى ذلك الطريق ·

يحدثنا « فولفرام » ان هذه الاقصوصة قد اكتشفها عالم مسيحى

---

(١) انظر صفحة ١٨ من كتاب الاسلام والجرال ·

(٢) انظر آية ٦٤ من سورة آل عمران وصفحة ٩١ من الكتاب المذكور ·

في احدى المخطوطات العربية في « توليدو » باسبانيا ، وان مؤلفها عالم طبيعي مسلم يدعى فليجيتانيس كان يعرف أسرار الكواكب والافلاك ، وكان قد قرأ في النجوم اسم الجرال ، وهو «الحجر الاسود» وعرف أن فريقا من الملائكة قد أنزلوه الى الارض ثم عادوا من حيث أتوا • ومنذ ذلك الحين قد تقرر أن يقوم على حراسته رجال طهرت قلوبهم حتى دنوا من الملائكة • واذن فوجود الجرال وأصله السماوى ونزوله الى الارض وثواؤه عليها في حراسة رجال أتقياء أنقياء كل ذلك قد عرف عن طريق أحد حكماء المسلمين وهو فليجيتانيس الذى هو تحريف أوروبى لكلمة « الفلك الثانى » وهى عنوان لكتاب عربى شهير • وسواء أكانت هذه الكلمة عنوانا للمخطوطة أم اسما لمؤلفه فذلك قليل الاهمية ، وانما الذى يعنينا هنا أن الفلك الثانى ـ فيما يرى الشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى ـ هو فلك عطارد أو السماء الثانية التى قطبها هو السيد المسيح • وان ممثله من المسيحيين على الارض من وجهة نظر الاسلام يجب أن تتوافر فيه صفات تكون أكثر اتصالا بالمسيحية النقية ، أو بالناحية الفطرية منها •

وعلى هذا الاساس يكون الاسلام آذن هو الذى يقدم الى الناس فكرة وجود الجرال أى « الحجر الاسود » على الأرض ، ولكنه لا يوضح الطريقة الفنية للوصول الى سر رمزه •

وبعد أن انتهى المؤلف من هذه النظرة العامة خصص بضعة فصول من كتابه لدراسة مختلف الشخصيات التى لها مساس بوجهة النظر الاسلامية والتى عرضت لها أقصوصة « فولفرام » ثم أبان الاتساق ـ الذى بين الرموز الاسلامية والمسيحية ـ فأنبأنا بأن « جاهمورية » والد « بارزيفال » ـ وهو منحدر من أرومة مصطفاة ـ خصص نفسه لخدمة أعظم سلطة روحية معروفة فى زمانه وان هذه السلطة كانت اسلامية •

وقد رجح « فولفرام » أن تكون هذه السلطة سلطة خليفة بغداد المعاصر « لجاهموريه » ولكن مؤلفنا ـ مستنيرا بمعارف محيى الدين بن عربى ـ يرى أن ذلك الخليفة الذى كان «جاهموريه» فى خدمته ليس أحد الخلفاء الدنيويين ، وانما هو قطب الوقت المسيطر بسلطانه على أكثر الارض بما فيها من المناطق غير الاسلامية • ولهذا أمكن أن يكون « جاهموريه » المسيحى فى خدمته وأن يقاتل فى سبيله فى الشرق والغرب • وفى أثناء مقامه فى الشرق يتزوج فينسل ولدا يدعى «فيريفيز» يصير فيما بعد فارسا مسلما • وفى أثناء ثوائه فى الغرب يتزوج زوجة

أخرى فينسل ولدا يدعى «بارزيفال» يكون فيما بعد فارسا مسيحيا ٠

ولقد كان هذان الاخوان متساويين تقريبا في الوصول الى قمة الفضيلة وتشاء الاقدار أن يلتقيا بسيفيهما منقاتلين ، دون أن يعرف كل منهما أخاه ، ودون أن يهزم أحدهما الآخر (ولكن « فيريفيز » يبدو فى هذه الاقصوصة الرمزية متفوقا على أخيه فى الحكمة وكرم الخلق) ٠ (١)

وعندما يتبينان انهما اخوان يكفان عن القتال ، ويعلنان أنهما لا يؤلفان سوى كائن واحد ، والفضل فى هذا التصريح الحكيم يرجع الى الأخ المسلم « فيريفيز » ٠

ونحن نحسب أن الهدف الرمزى من هذا الجزء من الاقصوصة جلى أتم الجلاء ، وهو أن تقاتل أهل الديانتين ناشىء عن جهل الفريقين بحقيقة مصدرهما ، ولو عرفا أنهما « كلتيهما » صادرتان عن الله الواحد لفضلا التفاهم والوئام على التنافر والخصام كالاخوين اللذين عندما تبينا انهما من أصل واحد كفا فورا عن القتال !٠

ولا يفوتنا هنا أن نشير الى أن المؤلف قد أرجع الفضل فى كشف حقيقة الاخوين وفى وقف القتال الى الاخ المسلم الذى هو أكثر حكمة وأدخل فى باب الخلق الكريم ٠

يشرح المؤلف ، بعد ذلك التجاوبات التى بين الرمزيات الاسلامية والمسيحية التى تجمع بينها ميزة الفطرة « وان فرقت بينهما المظاهر الخارجية للديانتين وذلك مثل جبل «ق» أو «جبل الجرال» ومثل «الحجر الاسود» الذى حمله الملائكة الى الارض ، والجرال الذى تحدثنا الاقصوصة الأوروبية ان الملائكة هم الذين أنزلوه الى الارض أيضا ، وكالطائر فينيكس الذى يقابل العنقاء فى رموز بعض صوفيه الاسلام ٠ وكذلك القلم الأعلى ، واللوح المحفوظ وما الى ذلك مما له معادلات دقيقة تتجاوب معه أتم التجاوب فى اقصوصة الجرال ٠

ومما يسترعى النظر هنا أن المؤلف يعقد موازنة طويلة بين الفرسان المسلمين والمسيحيين بمناسبة حراسة الجرال ، وينتهى من هذه الموازنة الى القول بأن الفرسان المسيحيين قد استمدوا مثلهم العليا من الفرسان المسلمين الذين تفوقوا عليهم فى جميع الجوانب الرفيعة ٠

ولا جرم أنه يقصد هنا بكلمة الفرسان « أقطاب الوقت » من أعلام

---

(١) انظر صفحة ٥٤ من كتاب « الاسلام والجرال » ٠

الصوفية الذين نيط بهم القيام على كثير من أنظمة الكون ، وكلفوا السهر على تنفيذ الاوامر الالهية ولا سيما ما يتعلق منها بالرموز والاسرار ٠

الآن، وبعد هذا العرض البسيط نستطيع أن ننتهى الى الاستنتاجات الآتية :

١ ــ ان هذا الكتاب حلقة من سلسلة مؤلفات غربية حديثة اتجه مؤلفوها الى دراسة الاسس الفطرية فى ذاتها وهى تفسح بين صفحاتها أمكنة واسعة تتحدث فيها عن « الفطرة التى فطر الله الناس عليها » حديثا كله احترام واجلال ، وهى لا تعنى بالاسلام لتدريسه أو لتحكم عليه من نواحيه الظاهرية ، بل هى تشغل به من تلك الوجهة الخاصة التى يتضح فيها أن الاسلام ــ بوساطة رسالته فوق الطبيعية التى تعرضها تعاليمه المخبوءة عرضا وافيا ــ متسع بطبعه لتلقى جميع صور الايحاءات الحقيقية والالهامات العلوية ، وانه يستطيع أن يؤول جميع النصوص السماوية الرمزية لكى يوفق بينها فى مراميها الرفيعة ويدخلها فى نظـام اسلامى يمكن أن يشمل اطاره الكون بتمامه ٠

٢ ــ أن كتاب « الاسلام والجرال » يحتوى على تأويل هام لاحدى أقاصيص العصور الوسيطة المسيحية التى تعد من رئيسيات المنتجـات القيمة التى ظفرت بالاعجاب العام فى زمانها ٠

ومما يسترعى الانتباه فى هذا التأويل أن الاسلام يقوم بدور نقل الامر الالهى ودور المرشـد الاختصـاصى المقتدر على تأدية مهمته بوساطة مبادئه العقلية السامية ٠

٣ ــ ان فكرة انحراف الغرب عن جادة الصواب ، وابتعاده عن كل ما هو الهى ابتعادا تزداد فداحته على مر الايام ــ قد جعلت تتضح لدى الصفوة الغربية ولا سيما منذ ظهور مؤلفـات « رينيه جينون » الشيخ عبد الواحد يحيى وان كان ذلك لا يمنع من أن يكون هذا الانحراف قد بدأ يظهر للمستنيرين من الغربيين منذ العصور الوسيطة ، كما يشيرالى ذلك هذا الكتاب حين يحدثنا عن أقصوصة عودة السر الالهى من الغرب الى الشرق مقره الحقيقى حين عجزت أوروبا عن الاسترشاد به والافادة منه باعلان انحرافها عن النظام الكونى والفطرة العـامة اللذين كان الواجب يقضى عليها بأن تظل وفية لهما ، لو انها اتبعت كتابها السماوى الحقيقى كما أشرنا الى ذلك فى عدة مواضع من مؤلفاتنا ٠

٤ ــ لهذا نحن نقرر أن جميع هذه النماذج من الكتب الغربية التى

تسجل سمو الاسلام ــ ولو انها لا تستخلص هذا السمو من ظواهره ، بل من محتوياته الخفية التى يتلقاها الغربيون عن افذاذ صوفية المسلمين ـ يجب أن تعد كتبا نافعة ولا يصح لنا نبذها أو اهمالها .

٥ ــ غير أن هذا الكتاب من ناحية أخرى عسير الفهم على الكافة ، خفى المرمى بالنسبة الى الجماهير ، غامض المغزى على أنصاف المتعلمين ، وكثير ما هم ، ولكنه يروق الى أبعد حد ممكن تلك الصفوة المتعطشة الى خفايا الاسلام ومخبوءاته النفيسة التى لو كان البحر مدادا لها لنفد البحر قبل أن تنفد ، ولو جىء بمثله مددا .

٦ ــ وأخيرا نقرر أن المؤلف لا يستغل فى اثبات سمو الاسلام مبادئه الظاهرية التى يعرفها جمهـــور المسلمين ، وانما هو يســتغل التعاليم الاسلامية الخفية التى تمثل فطريته وامتيازه وتفوقه وصلاحيته لكل زمان ومكان أدق تمثيل والتى يقتبسها مؤلفنا من عظماء صوفية الاســـلام ولاسـيما الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى .

أثر حضارة الاسلام

فى مدنية الغرب

لا ريب أن الحروب الأخيرة وما نشأ عنها أو بسببها من انقلابات رائعة ومروعة فى العلوم الطبيعية والكيمائية قد تضافرت على احداث ثورات عالمية فى الأفكار والظواهر والأنظمة الاقتصادية والاجتماعيه والسياسية لا تزال تتعاقب تحت أبصارنا وأسماعنا فى صور مذهلة ، وكان من النتائج المباشرة لتلك الانقلابات أن جعلت المدنية المادية تغير مقرها ، وطمحت نيويورك وموسكو الى أن تحلا محل باريس ولندن ، وأن تنفردا دونهما بالصدارة والامتياز ، وفوق ذلك فان هناك شعوبا كانت الى الامس القريب تغط فى نوم عميق ، وتترنح فى خمول مرهق غمسها فيهما الاستعمار البغيض ـ بدأت تستيقظ فى نشاط وحيوية يتناسبان مع طفرات عصر الوثوب والانطلاق .

وهكذا لم نلبث أن شاهدنا الشعوب تنزلق الى مسرح الحياة العالمية وتقوم عليه بأدوار خطيرة فى الجوانب المتباينة الصور والألوان كالهند والشعوب العربية التى حطمت نير الاستعمار ، ونفضت عن كواهلها غباره الى الأبد .

ومن هذا يتبين ان سنن الطبيعة تقتضى أن توجد على هذا الكوكب انقلابات متوالية تنتج فى كل موضع منه تحولات أساسية فى التفكيرات والتصورات التقليدية ، وان المدنية الغربية التى كانت الى عهد جد قريب تشغل الصف الاول من عقول الناس وقلوبهم قد أصبحت اليوم تشعل

لهيب معارك طاحنة لكى تحتفظ لنفسها بتلك الصدارة العالمية ، لأنهـا تشعر الآن بأنها مهددة بالفناء والزوال • ونحن لكى نجزم باحتمال أن هذه المدنية الغربية تستحق البقاء أو الفناء ينبغى أن نقف عند تاريخها وقفة عاجلة نتبين من خلالها القيم الأخلاقية والاجتماعية التى تحتويها • وقد أردنا أن نستأنس هنا ـ فى تعريفنا تلك المدنيـة ـ بنص الكاتب الفرنسى الكبير سيجفريد الذى نشره فى مجلة التبادل العالمية فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ اذ قال :

« تتألف هذه المدنية من ثلاثة أسس :

أولها ـ ادراك المعرفة ، وهو آت عن طريق الاغريق •

وثانيها ـ ادراك الفرد وهو آت كذلك عن الاغريق فى بعض جوانبه، ولكن أهم تلك الجوانب منبثق من تعاليم الانجيل •

وثالثها ـ الاصطلاحات الخاصة الضرورية للانتاج والنابعة من الثورات العلمية والصناعية التى اندلع لهيبها فى القرن الثامن عشر والتى خلقت من الانسان الغربى سيدا لكوكب الارض بلا منازع ، فطالما أن هذه الأسس الثلاثة تظل مجتمعة تكون المدنية الغربية موجودة ،بل كامنة ، ولكن عندما يلحقها التشوه فان شمس حياتها تأذن بالغروب !

مما لا ريب فيه أن هذا التعريف جدير بالعناية ، لأنه يسمح لنا بأن نضع أيدينا على مواطن التشوه التى خضعت لها المدنية الغربية فى العصر الراهن ، اذ أن الأساسين الاول والثانى يبدوان فى صـورة شاحبة تنم عن الاحتضار على حين أن الثالث قد خضع لتطورات عملاقيـة مفزعة توشك أن تكتم أنفاس السببين السابقين وان تخلع على المدنيـة الغربية مظهر العصر الراهن أو المادية المطلقة •

والسر فى ذلك هو أنه يصعب الآن على العـالم الغربى ـ دون نفاق ـ أن يحتفظ فى ادراكه للفرد بالصلة بين تعاليم الانجيل والنظريات المادية الحديثة •

أما المعـرفة العقلية المنحدرة من الفكر الاغـريقى فان كثيرا من النظريات الفلسفية الحديثة تنبذها باحتقار وازدراء ، وهنا نستطيع أن نجزم فى غير مواربة بأن فلاسفة الاسلام هم وحدهم الذين استطاعوا أن يستخلصوا من الانتاج الاغريقى كل ما اشتمل عليه من منطق قويم سليم، وتعقل حصيف جدير بالخلود يتفق أكمل اتفاق مع الفكـرة القـرآنية الأساسية فى ادراك الكون العام •

ونحن اذا أردنا أن نتحقق هول ذلك الانحـــدار المتواصل فليس علينا الا أن نستمع لتلك الصرخة المفزعة الآتية من لدن المتعقلين الأدقاء من مفكرى الغرب الذين أحسوا بخطر الكارثة قبل غيرهم من المنـــدفعين فى ذلك التيار المادى الأهوج الذى ســـينتهى الى الدمار اذا لم يتدارك المهيمنون على شئون المدنية هذه الحالة الأسيفة متخذين من مبادىء الاسلام الفطرية مصابيح هدايتهم وارشادهم • وهاك نموذجا من تلك الصرخات المنذرة بالويل والثبور :

يقول « باستور فاليرى رادو »فى كتابه « أفكــار عن المــدنية » ما يلى :

« ان مدنية الغرب تتجه اليوم الى أن تمنح التطبيقات العملية الصدارة على الفكر النقية ، فالآلات الميكانيكية هى صاحب السلطان ، اذ أنهــا لا تحول الحياة المادية فحسب، بل هى تقتاد الحياة العقلية أيضا •والباحثون لم يعد لهم مهماز يدفعهم سوى كشف آلات جديدة ليستغلوها فتغير العلم والصناعة والحياة اليومية » •

واذا أنعمنا النظر فى نصوص الفيلسوف الفرنسى الروحى جــاك ماريتان الواردة فى كتابه ـ « درجات المعرفة » ـ ألفيناها أصرح وأشد قسوة فى الحق ، اذ هو يلاحظ كيف أن العقل الحديث قد استولى عليه ميل خفى الى المادة التى لا يعمل الا فيها وحدها ، والتى يستحوذ عليها بوساطة غزو جزئى هو دائما مؤقت •

ثم يضيف الى ما تقدم قوله :

« غير أن هذا العقل الحديث قد ضعف ضعفا أسيفا وأصــبح أعزل بازاء الموضوعات التى هى من اختصاصه والتى يتخلى هو عنها فى وضاعة • انه صار غير قادر على فهم قيم عالم اليقينيات العقلية ويبدو أن زماننا قد وضع من الفلك فى منزلة الفرقة بين الجسم والروح • ومن الواضح أن مرور البشرية تحت نظام المال والميـــكانيكية يســـجل مادية مطردة للعقل وللعالم » •

واذن فنمو هذا التقدم للعلم التجريبى والميكانيكية علامة تشويه تلك المدنية فوق أنه انذار صريح بانهيارها العاجل • ان عقيدة عصمة العلم الواقعى أو الايمان بأنه هو المنبع اليقينى الوحيد للمعرفة البشرية قد نشأ فى القرن الثامن عشر وتلألأ فى القرن التاسع عشر ، وكان من النتائج الحتمية لهذا الازدهار أن نبذ العلماء الواقعيون جميع المعـــارف الدينية والميتافيزيقية مادام أنها لا تصلح لتغذية تلك المعرفة فى نظرهم•

وما أكثر العلماء الذين آمنوا فى ذلك العهد بأن العلم التجريبى سيعمل على شرح أسرار الكون ، وعلى الأخص سر تألف المادة • وليس هذا فحسب ، بل جعلوا يطالبون بحق الانتصار قبل حدوثه الى درجة أنهم أثروا ردحا من الزمن فى الجماهير الجاهلة السريعة التصـــديق ، وقيدوا الرأى العام فى تلك الحقبة بالانحباس فى نطاق ضيق ، مجمله نبذ كل ما ليس متحيزا ولا ماديا ، ومن ثم التخلص من الميتافيزيقا وهو يستلزم التخلص من الدين لأن أسمى قمم الميتافيزيقا هى الألوهيـــة العقلية •

ومما لا سبيل الى الشك فيه أن آمال علماء القرن التـــاسع عشر المفعمة بالطموح قد اخذت فى العصر الراهن تنطفىء شـــيئا فشـــيئا ولا سيما آمال الطبيعيين المنحصرين فى محيط المادة •

وقبل أن نودع تلك العقلية المادية الراحلة ترافقهـا عقيدتها الزائفة وان نستقبل العقلية الطبيعية الجديدة ، كما تطلق على نفسها ــ نود أن نقف هنيهة أمام أنصاف المتعلمين من مواطنينا الذين هم ــ مع الأسف الشديد ــ مكلفون بتعليم الشباب الساذجين ، فنعلن أنهم يقذفون الى قلوب هذا الشباب وعقولهم بآراء لم تعد تستمتع بالحياة الا بين دهمـــاء الجماهير • وهكذا شاءت لهم كرامتهم أن يتيهوا عجبا ومبـــاهاة بارتداء المرقعات التى نبذها أصحابها احتقارا لها وترفعا عنها منذ زمن بعيد !

والآن نعود الى آراء بعض العلماء المعاصرين عن علم الطبيعة الجديد الذى لا يطعن على الميتافيزيقا ، بل يتركها تسير فى طريقهـــــا حرة الى حقولها الخاصة التى يعدها مباينة لحقوله الى درجة تجعل تعرضه لها ضربا من المشاكسة المؤسسة على الجهل لاشتمالها على الخلط بين طبائع الأشياء ومن ثم بين معايير الموجودات •

نعود الى آراء أولئك العلماء المعاصرين فنسجل ان العالم الانجليزى الشهير ايدنجتون فى كتابه : « طبيعة العالم المادى » الذى ظهر فى سنة ١٩٢٩ كتب ما يلى :

« نحن نفهم اليوم أن العلم ليس لديه ما يقوله عن طبيعة الجوهر الأساسى للذرة أكثر من انه ــ ككل شىء فى الطبيعة ــ عبارة عن سلسلة من أقيسة الكميات ••• وان البحوث العلمية لا تنتهى الى معرفة جواهر الأشياء ، وان العالم الظاهرى الذى هو محيط علم الطبيعة قد صـــــار عالما من الظلال » •

وكذلك يقول العالم الطبيعي مايرسون في مقال نشرته له مجلة « الشهر » الصادرة في يونيو سنة ١٩٣١ تحت عنوان « العالم الطبيعي والكائن الواقعي » ما يلي :

« ان العالم المعاصر لا يستطيع أن يعين جوهر الكائن الواقعي ، بل ان هذا نفسه هو الذي يميز خطته عن خطط سلفه في القرن التاسع عشر ، كما يميزها بصورة أوضح عن خطة عالم العصور الوسيطة ، العالم العصري لم يعد يجزم بأنه يستطيع أن يفهم جوهر الكائن الواقعي الذي يبدو له على العكس كأنه محوط بسر عميق » .

من هذا يتبين تواضع العلماء الحقيقيين ومعرفتهم قدر أنفسهم واعترافهم بأن العلم التجريبي عاجز كل العجز عن كشف أسرار الكون وخفايا الوجود ، كما يتبين أن الذين يتباهون عندنا بالطعن على الميتافيزيقا انما هم متأخرون حتى في جهلهم . ومضحكون حتى في تقليدهم ، وانه يجب على الدولة أن تحمي الشباب من آرائهم الزائفة الضالة التي لا تكاد عقولهم الناشئة تتلقاها حتى تتلقفها :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وينبغي أن يستقر في أذهار أولئكم الشباب البريئين ما توصل اليه أدق علماء الطبيعة في عصرنا الراهن ، وهو أن العلم المادي التجريبي غير قادر البتة على ارضاء العقل الذي لا يزال يعذبه الطموح الى ما هو أرفع من واقعه الذي يعيش فيه ولا يزال يغريه بأسئلة أدخل في باب السمو من الظواهر الخارجية وأقدر على جذبه المتواصل الى عالم المعقولات النقية التي أولى وظائف العقل الأساسية هي ادراكها بوساطة المنطق الذي هو أحد الطرق الطبيعية لفهم المبادىء التي أتت بها الاديان ولا سيما الاسلام لان القرآن قد اشتمل على عدة مناهج متنوعة لفهم أسرار الكون اختص كل فريق من البشرية بمنهج منها يلتئم مع عقليته ورقيه « وكل ميسر لما خلق له » .

ولكن جميع الذين يسلكون تلك المناهج المختلفة يلتقون عند غاية واحدة مع الفريق الذي أرشده الوحي وحده ، وهذا معناه أن الوسائل متعددة ، والغاية واحدة .

غير انه - مع هذا كله ، وبرغم هذا كله - قد غرست السياسة الاستعمارية من جهة والعنجهية من جهة أخرى في نفوس الغربيين أنهم نشئوا من عنصر آخر غير عنصر الشرقيين ، ومن ثم هم أسمى منهم

طبيعة وأرقى مدنية • وقد طفق الطغيان طوال أزمان الاستعباد الممقوت يعمل على تثبيت هذه الفكرة الخاطئة حتى جعلها بالنسبة الى الغربيين أشبه الأشياء بالحق المكتسب الذى لا مشاحة فيه ولا نزاع ، وتمكن بوسائله الجهنمية من ترسيخها فى نفوس ضعاف الشرقيين ترسيخا لم يلبث أن تحول الى عقدة نفسية كانت الى عهد قريب متعذرة الحل ، أو مركب نقص مرهق ظل الى ما قبل الآن عسير الزوال ، وكان من نتائج هذا المركب النقصى الخطر أن آمن الجيل الذى نشأ وربى بين أحضان الاستعمار وهدد بارهابه ومخاوفه بأنه أدنى من الغربيين عنصرا ، وأقل منزلة ، وأحط مدنية ، ولولا هذا ما كان لهم على الشرق حق السيادة والامتلاك ! ولا ريب أن هذه الفكرة بعيدة عن الحقيقة بعد الظلام عن النور ، ولا نريد أن نستشهد على ذلك الا بما سجله أعلام كتابهم وأفذاذ علمائهم وباحثيهم النزهاء •

ففيما يتعلق بالعهود الأثرية يصرح الكاتب الانجليزى ريدر هيجارد مخاطبا مصر بقوله :

« فى الوقت الذى كان فيه فراعنتك يتنزهون فى زوارق أنيقة يجذف لها بمجاذيف من ذهب ، كان أجداد أولئك الذين يستعمرونك الآن يقطنون الغابات ، ويقتلون الحيوانات بالأحجار ، فيشوون جلودها ، ويرمون لحومها جهلا منهم بما يؤكل وما يرمى ! » •

أما فى العصور الوسيطة التى أنار فيها الاسلام مشاعل الحضارة العربية ، ورفع راياتها الخفاقة ، ونشر معارفها المتنوعة والتى التقى فيها الغربيون بالمسلمين فى اسبانيا عند نهاية القرن السابع ثم ابان الحروب الصليبية فى فلسطين وسورية ومصر فى أثناء عدة قرون ، فاليك مايقوله فيها العالم الفرنسى جوزيف كالميت فى كتابه « تاريخ اسبانيا » الذى ظهر فى سنة ١٩٤٧ :

« قد يبدو للوهلة الأولى أن تعارض الدينين كان يمكن أن يضع عقبة كأداء أمام تبادل التأثير بين الثقافتين ، ومع ذلك فلم تقم هذه العقبة على الارض الاسبانية ، اذ أن الظاهرة الملحوظة انما هى ظاهرة عمل متبادل مستمر متغلغل الى الأعماق ، غير أن فى وصفنا هذا التأثير بالتبادل شيئا من التجوز،لأن الجانب الاسلامى كان أكثر نشاطا ، اى ان الاسلام هو الذى قدم عنصر الانتاج ، وان العالم المسيحى هو الذى تلقى الأثر الانفعالى •

وفي الواقع أن هذه العناصر النشيطة قد تنــاولت جميع جوانب المعرفة البشرية كعلوم الطب والهندسة والجبر والفلك .

ولقد أجمل الاستاذ رودينسون ذلك في مجلة « تاريخ الأديان » الصادرة في ديسمبر سنة ١٩٥١ في تلك العبارة الجامعة الشائقة فقال: « ان علوم الغرب في ذلك العصر كلها علوم عربية » .

أما الفلسفة فحسبنا أن نذكر عنها رأى أحد الأعلام الفرنســيين المتخصصين في دراسة فلسفة العصور الوسيطة وهو « ايتيين جيلسون » الذى يبرز تأثير فلاسفة المسلمين في مفكرى المسيحيين في كتابه «التاريخ المذهبى والادبى في العصور الوسيطة » حيث يقول :

« ان أول الاوهام التى ينبغى تبديدها هو الذى يصــور الفــكر المسيحى والفكر الاسلامى على أنهما عالمان متباينان تمكن معرفة أولهمــا مع جهل « ثانيهما » .

ونحن لا نريد أن نسهب هنا في تفاصيل هذا التأثير الذى يعترف به الجميع ، بل الذى بلغ من الشهرة حدا يجعل الحديث عنه ضربا من ضروب الاعادة والتكرار ، وانما حسبنا أن نشير الى تأثير ابن سينا في « ألبير الاكبر » و « القديس توماس الاكوينى » وهمـــا على رأس أعلام المفكرين الغربيين في العصور الوسيطة ، أما تأثير ابن رشد في فلاسفة ومتفلسفى تلك العصور وعصر النهضة فهو غنى عن كل وصف ، وليس عليك الا أن تلقى نظرة عاجلة على تاريخ جامعتى السوربون وبادوا، وماكان يحدث فيهما من معارك فلسفية طاحنة حول آراء ابن رشد في ذلك العهد. وحسبنا ان نسجل هنا ان اسم « الشارح » كان اذا أطلق في أوربا في ذلك الحين لا ينصرف الا الى ابن رشد وحده ، وان هذا الفيلسوف قد ترك في الغرب مدرستين قيمتين ، أطلق المؤرخون على احداهما اسم « المدرسة اللاتينية » وعلى الاخرى اسم « المدرسة العبرية » وان رينان قد خصص لدراسة مذهبه كتابا عنوانه « ابن رشد والمدرسة الرشدية » واذا أردت بيانا عن هذا كله ، فارجع الى كتابنا : « الفلسفة الاسلامية في الغرب »

واذا غادرنا العلوم والفلسفة واتجهنا الى الالهيات التنســكية ، ألفينا المستشرق الاسبانى الكبير الاستاذ ميجيل ازين بالاسيوس يلقى أعظم الأضواء وأسطعها على تأثير الأئمة : الغزالى ، وابن مسرة ، ومحيى الدين بن عربى في المدارس التنسكية الاسبانية .

وكما قرر أولئك العلماء تأثير المســلمين في جميع فروع العلوم

المتنوعة ، كذلك سجلوا هذا التأثير في الحضارة الاوروبية الرفيعة على اختلاف مناحيها المترامية الاطراف • وفي هذا يقول ارنيست رينان في كتابه المذكور آنفا - برغم تحامله أحيانا على الاسلام والمسلمين - ما يلي :

« أن الميل الى العلوم وتذوق الفنون الجميلة قد انشأا في اسبانيا في القرن العاشر تسامحا لا تكاد العصور الحديثة تقدم الينا منه مثلا واحدا ، اذ أن المسيحيين واليهود والمسلمين كانوا يتكلمون بلغة واحدة ، ويتناشدون الاشعار الواحدة ويتقاسمون الدراسات الادبية والعلمية ،وان كل الحواجز التي تفرق بين بني الانسان قد انهارت ، وان الجميع كانوا يسهمون متفقين في تشييد الحضارة المشتركة ، وان مساجد قرطبة التي يعد طلابها بالآلاف قد صارت مراكز نشيطة للدراسات الفلسفية والعلمية •

وكذلك يسجل العالم الفرنسي الاستاذ فوربيل ذلك في كتابه « تاريخ الجول الجنوبي » و « تاريخ الشعر البروفانسي » فيقول :

« ان من الوقائع الجديرة بالملاحظة تلك الجاذبية وذلك الاتصال الاجتماعي اللذين استقرا منذ زمن بعيد بين العرب والاسبانيين ، وجعلا ينموان على التوالي ، وهاتيك السهولة التي خضع بها الأخيرون لذلك السمو النبيل الذي افاضه عليهم الأولون ، اذ استهوتهم عبقريتهم الشفافة فاستساغوا لغتهم ، وألفوا عاداتهم بل أخيلتهم •

ان طبائع العرب وانظمتهم هي التي استرعت أنظار أهل الجنوب في فرنسا في القرن الحادي عشر حين بدءوا يرون في أولئك المسلمين - وهم الذين كانوا أول الامر يرهبونهم بوصف أنهم أعداء للعقيدة المسيحية - رجالا أكثر منهم حضارة !

كان الاجماع في ذلك العهد يعزو الى العرب كل ماكان يبدو خليقا بالاعجاب أو كل ما كان يقتضي وجود فن من الفنون الرفيعة » •

واذا تصفحنا كتاب : « حضارة العرب » تأليف جوستاف ليبون ألفينا أنه لا يقل عن سالفيه جزما بأن الفرنجة مدينون للمسلمين بكثير من مدنيتهم التي يتيه بها اليوم حفدتهم عجبا وافتخارا ، وهو في هذا يقول : « انما عن العرب وحدهم قد أخذ سكان أوربا الى جانب قوانين الفروسية الاحترام والتلطف اللذين تفرضهما هذه القوانين عليهم للمرأة

فرضا ، واذن فليست المسيحية ــ كما يظن فى الغرب بصورة عامة ــ هى التى رفعت المرأة وانما هو الاسلام ! » •

وفى الحق أن قوانين الفروسية التى يتحدث عنها جوستاف ليبون كانت أحد المؤثرات الهامة التى سجلها التاريخ للشرق على الغرب بأحرف الخلود ، وان أبرز ميدان تلألأ هذا التأثير فى سمائه هو جبهات الحروب الصليبية ، اذ أن المسلمين هم الذين ألهموا فرسان الفرنجة الذين كانوا معروفين بالجفاف والفظاظة ، مبادىء الشهامة والوفاء بالعهد والتسامح وكرم الخلق واحتقار الثروة واحترام المرأة •

واذا نظرنا فى تاريخ الحروب الصليبية ألفينا فيها مثلا من المثل العليا من شهامة المسلمين ورفعة أخلاقهم نود أن نسجل منها هنا ذلك المثل الرائع من سلوك قائد جيش المسلمين الأعلى صلاح الدين مع قائد جيش الفرنجة قلب الأسد ، وهو السلوك الذى يثبت فى مباهاة الفروسية الاسلامية والذى أعطى الغربيين درسا لا يمحوه الزمن !

ومما يسترعى الانتباه هنا أن هذه الرفعة الاسلامية قد سجلها الاستاذ بير بونسواى فى كتابه « الاسلام والجرال » فى نزاهة واخلاص دفعنا الى أن نقتبس منه الفقرة التالية :

« يعلم الناس اليوم أكثر من ذى قبل أن المسيحية والاسلام فى العصور الوسيطة لم يلتقيا للتقاتل فحسب ••• فهناك وقائع متضافرة ومحققة تشهد بأنه قد وجد بين صفوتيهما المسئولين ــ فيما وراء التلاعن والتقاتل ــ كثير من التآلف ، ولكنه لم يكن تآلفا ناشئا من تبادل التفاهم السطحى الناجم عن المصادفة ، بل كان اتحادا روحيا حقيقيا لعبت فيه الثقافة الاسلامية فى أثناء عدة قرون دور الملهم والمرشد •• »

وأوضح وأصرح من ذلك كله مايحدثنا به الكاتب العصرى الكبير « أناتول فرانس » اذ يسجل على لسان أحد أبطاله فى كتاب « الحياة مزهرة » مايلى :

« ان أشأم أيام التاريخ هو يوم معركة بواتييه فى سنة ٧٣٢ حين تقهقرت العلوم والفنون • والحضارة العربية أمام البربرية الفرنجية » •

وفى الواقع أن هذا اليوم الذى ينعته أناتول فرانس بالشؤم هو الذى استطاع فيه جيش شارلمان بقيادة شارل مارتيل أن يقف زحف

الغزو العربى الذى كاد يجتاح أوروبا ، ثم وقف عند مدينة بواتييه فى وسط فرنسا ثم تراجع واكتفى بالثواء فى اسبانيا .

ويرمى أناتول فرانس بهذا الى أنه لو لم يقع هذا الحادث المشئوم ، وشاءت الاقدار أن تتغلغل الحضارة العربية فى أوربا حتى تشملها كلها ـ لتغير وجه التاريخ ، ولكان للانسانية ـ بفضل المبادىء الاسلامية ـ شأن غير هذا الشأن البربرى الذى تعيش فيه أوربا الآن غارقة فى الطغيان والاستبداد ، والقسوة والوحشية والاستعمار تمتص دماء الضعفاء ، وتخيف الآمنين الوادعين وتغرى الخونة والمترددين ، وتدمر المدن والقرى باسم المدنية والانسانية ، وترقية المتأخرين وتعليم الجهلاء ، والقوامة على القاصرين ، وهى فى ذلك كله ليست سوى وحوش كاسرة لاتعرف الرحمة الى قلوبها سبيلا !

بان من كل ماتقدم أن لدينا من تراث حضارتنا العالية ، ومن أخلاق أسلافنا الخالدين ماهو قمين بأن يملأ قلوبنا بالعزة ، ويفعم نفوسنـــا بالكرامة بدلا من انزوائنا أو تخاذلنا أو اقتناعنا بأن الغرب أعرق منا مدنية كما أمر الاستعمار سماسرته فى العهد البائد بأن يلقنوا شبابنا أساليب تلك الذلة البغيضة التى لم تكن ترمى الا الى ترسيخ أقدامه فى بلادنا وخضوعنا لأوامره ونواهيه . أما وقد شعت أنوار الحرية فى الشرق كله ، فليس على أبنائه الآن الا أن يفتشــوا فى تاريخهم المجيد ليستخلصوا من بين سطوره المتلألئة مبادئه السامية التى أخفاها المستعمرون كل ذلك الزمن المظلم البغيض ، والتى لا يستطيع بعد الآن كائن من كان أن يقف فى طريق سيرها الجارف الذى اجتاح وسيجتاح الأخضر واليابس من غروس المستعمرين ، وتعـــاليم سماسرتهم من الذين مرنوا على العبودية حتى ألفوها ، والذين قضت وستقضى عليهم ثورتنا المباركة قضاءها الأخير .

استرعاءات عاجلة ومستأنية

تناول عدد غير يسير من المستشرقين المحدثين الاسلام وكتابه ونبيه بالدراسة والبحث والتحليل وسجلوا ذلك كله فى مؤلفاتهم تسجيلات موجزة حينا ، ومسهبة أحيانا ، ودقيقة تارة ، وسطحية تارة أخرى ، ونزيهة طورا ، ومغرضة أطوارا .

وسنمر فى الصفحات الآتية من الكتـــاب بهـــذا كله فى شىء من التفصيل ، معقبين على الباطل منه بما يدحضه دحضا تاما مثبتين الحق مع الثناء على نزاهة أصحابه ورجاحة عقلياتهم ، ولكننا رأينا أن نبدأ هذا

الغرض بذكر الآراء الصحيحة التى هى الى جانب الاسلام والحق ، فاذا انتهينا منها مررنا بالآراء الأخرى المخالفة مرور الناقد بالحجة والبرهان ، لا بتأثير العاطفة أو بدافع التعصب والهوى . وسنكتفى هنا ببعض عبارات موجزة قيمة شهد أصحابها للنبى صلى الله عليه وسلم بشىء مما كان عليه من العظمة والجلال ، أو سجلوا فيها شيئا من سمو القرآن ورفعته ، أو خلدوا بها جانبا من جوانب امتياز الاسلام ، وهاك تلك العبارات :

١ ــ قال الاستاذ « كازانوفا » : « ان كل تاريخ النبى العربى يدل على أن خلقه عملى جدى محمود ، ان محمدا وأصحابه قد أوضحوا بعناية تامة ،الفرق بين آرائه وادراكاته للحياة الواقعية من جهة، وتعاليم السماء من جهة أخرى ، وقد ظلت هذه الفروق خالدة فى الاسلام الذى لا يخلط بين القرآن والسنة ، بل انه فى السنة نفسها يفرق بين ماله صفة الموحى به وما هو شخصى لمحمد » (١) .

٢ ــ قال الأستاذ « كارادى فو » : « أن محمدا أتم طفولته فى الهدوء ، ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود ... وقد عاش هادئا فى سلام حتى بلغ الأربعين من عمره ، وكان باشا تقيا لطيف المعاشرة » (٢) .

٣ ــ وقال أيضا : « ان محمدا كان هو النبى والملهم والمؤسس ، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا ، ومع ذلك فلم ينظر الى نفسه كرجل من عنصر آخر أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين . ان شعور المساواة والاخاء الذى أسسه بين أعضاء الجمعية الاسلامية كان يطبق تطبيقا عمليا حتى على النبى نفسه » (٣) .

٤ ــ وقال الاستاذ « ديزيريه بلانشيه » : « ان النبى محمدا يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة ، وهى : أنه أحيا شعبا ، وأنشأ امبراطورية ، وأسس دينا » (٤) .

٥ ــ قال الشاعر العظيم « لامارتين » . « ان محمدا أقل من اله ، وأعظم من انسان عادى : أى أنه نبى » .

---

(١) انظر صفحة ٥ من الجزء الأول من كتاب « محمد ونهاية العالم » للاستاذ كازانوفا . وليعلم القارىء ان هذا الكتاب ، كما اشتمل على آراء صحيحة ، احتوى على أخرى فاسدة ، سنعرض لنقدها فيما بعد .

(٢) انظر صفحتى ٢٢ ، ٢٣ من كتاب «المحمدية» للاستاذ كارادى فو .

(٣) انظر صفحة ٦٣ من كتاب «المحمدية» للاستاذ كارادى فو .

(٤) انظر كتاب «دراسات في التاريخ الدينى» .

٦ ـ قال الاستاذ على أسير الدين : « صريح ذلك الراعى ، قوى العزم نقى القلب طاهر النفس ، دعاه قومه بالأمين ، أحبه جده ، وأوصى بذلك الصبى الجميل خيرا ، فهو خير ثمرة لخير شجرة نبتت بين ربوع قريش ... وقريش هذه من أعظم قبائل العرب فى ذلك الحين » .

٧ ـ قال الاستاذ « جارسان دى تاسى » : « ان محمدا ولد فى حضن الوثنية ، ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بعبقرية فذة انزعاجا عظيما من الرذيلة وحبا حادا للفضيلة ، واخلاصا ونية حسنة غير عاديين الى درجة أن أطلق عليه مواطنوه فى ذلك العهد اسم الأمين (١) » .

٨ ـ وقال المستشرق الفرنسى الاستاذ ليبون ، كما تقدم ذلك : « حسب هذا الكتاب جلالا ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف ـ ولو بعض الشىء ـ من أسلوبه الذى لايزال غضا كأن عهده بالوجود أمس » .

٩ ـ قال الاستاذ « ديزيريه بلانشيه » مؤلف كتاب « دراسات فى التاريخ الدينى » :

« ... ومن جانب آخر ينبغى أن نذكر أن الدين الاسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة ، لأن فيه قوة كامنة ، وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة قدرة تامة ... وفى الواقع ، فبماذا يمكن أن يهاجمه النقد ؟ أفى تاريخ محمد ؟ انه تقريبا خال من الخوارق والمدهشات ، وليس فيه تقريبا من المسلمات الا مافى الديانة الكاثوليكية من معتقدات طاهرة نقية فهـــل هذه الخوارق فى الشعائر والطقوس ؟ انك لو رجعت بالدين الاسلامى الى قواعده الأساسية ما وجدته قد زاد على الدين الفطرى الا « نبوءات » محمد ، وادراكا حقيقيا وفهما صحيحا لمعنى القضاء والقدر . وهذا الفهم الصحيح للقضاء والقدر يعد صفة عامة لكل الذين يدركون بقوة عقولهم ، ودقة شعورهم أنهم فى احتياج شديد الى أن يسيروا فى هذه الحياة بنظام دقيق ، وخطة محكمة ، أكثر مما يعد عقيدة من العقائد أو أصلا من أصول الايمان ...

« أن للمرء الحق المطلق فى اختيار أى مذهب من المذاهب الأربعة التى تسود فيها حرية الرأى بأجلى مظاهرها وأدق معانيها . أما العبادات والشعائر الدينية المستخلصة من اعتقادات ثانوية فلا يمكن أن تقـارن

(١) انظر صفحة ٦ من مقدمة كتاب «الاسلام» لجارسان دى تاسى .

من جهة البساطة الا ببساطة البروتستانتية التى هى عبارة عن الاعتقادات الطاهرة النقية ، والأصول الصادقة الصحيحة فى الكاثوليكية ··· وانى أعتقد أن الشرق اذا تغلب على جموده وتخلص منه فان الاسلام لن يضع أية عقبة جدية فى سبيل التفكير الحديث · ولقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله ، فقعد بهم العجز ، وشملتهم الخيبة ، وبهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذى أقفل فى وجوههم كل باب » ·

١٠ ـ قال الاستاذ « ماسينيون » فى كتابه « محـاولة حول أصول المفردات الاصطلاحية للتصوف الاسلامى » :

« ··· انما بفضل التصوف كان الاسلام دينا دوليا وعاما ، انه دولى بفضل الأعمال التقية التى قام بها الصوفية فى زياراتهم لبلاد غير المؤمنين ، أى بفضل المثل الرائع الذى قدمه نساك المسلمين من شيوخ الطرق : الكبروية والشطرية والنقشبندية » الذين كانوا يتعلمون لغات الهنود وسكان جزائر الهند الشرقية ويندمجون فى حياتهم ··· هذا المثل هو الذى هدى أولئك القوم الى الاسلام أكثر مما فعل الغزاة · وهو عام لأن الصوفية هم أول من فهموا الأثر الخالد الفعال للدين الحنيف ، وهو وجود توحيد عقلى طبيعى لجميع بنى الانسان » · وقد تقدمت الاشارة الى ذلك ·

١١ ـ قال الاستاذ « سنوك هورجرونج » المستشرق الهولندى فى كتابه « سياسة هولندا تجاه الاسلام » ·

« ··· ان الاسلام بفضل تصوفه قد وجد وسيلة صعوده الى مكانة مرتفعة يستطيع منها أن يرى أبعد من الآفاق الخاصة ، أى أن هذا التصوف مشتمل على شىء من دولية الدين » ·

الآن وبعد كل ما تقدم نســتطيع أن نجزم بأن بحـوث كثير من المستشرقين عن الاسلام فى تقدم يوشك أن يكون مطردا نحو الاهتداء الى الرشاد ، والى فهم هذا الدين على حقيقته بفضل دراستهم العميقة لأصوله ومنابعه الجوهرية ·

ومن آيات ذلك أن الاستاذ « اميل ديرمانجيم » ـ وهو الذى أخذ عنه الدكتور « محمد حسين هيكل » كتاب « حياة محمد » ـ يلاحظ « أن التسرع فى الأحكام قد حال زمنا طويلا دون دراسة علمية حق لأصول الاسلام » ·

ويلاحظ « ديرمانجيم » كذلك أن بعض هؤلاء الاختصاصيين قد هووا ، مع الأسف ، في الافراط في النقد . فكانت كتبهم ـ وهي لا تعد في الحقيقة الا طلائع للبحث ـ معاول للهدم ، وانه هو شخصيا قد عول على أن يسلك طريقا وسطا بين الافراط والتفريط ، فيتبع الرواية الى الحد الذي لا يتعارض فيه مع النقد الحر ، أي لا يسلم بالمعقول وغير المعقول ، ولا يغالي في الهدم ، كما فعل بعض المستشرقين الذين عرضوا لدراسة الاسلام ٠

وقد سلك هذه السبيل فوفق الى كثير من الحقائق ، وان كان له هو الآخر هفوات سنعرض لها في حينها ، ولكننا نكتفي الآن بأن نسجل هنا لهذا الكاتب بعض أحاسن آرائه في النبي صلى الله عليه وسلم وفي القرآن٠ وتلك الآراء التي أدلى بها هذا الكاتب الممتاز يتعلق بعضها بمحمد صلى الله عليه وسلم انسانا ، وبعضها به حكيما ربعضها به نبيا ٠

محمد ٠٠٠ انسانا

نريد الآن أن نشير الى رأي الاستاذ « ديرمانجيم » في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية ، لا لأننا في حاجة الى التدليل برأي كاتب أوربي على ســـمو الأخلاق النبوية الى أقصى ماتسمح به الطاقة البشرية ، ولكن لنبين أن الباحث المحايد الدقيق اذا بذل أدنى عناية في البحث ـ انكشف له من الحقائق مايبهر اللب بسطوعه ولمعانه ،وهاك موجزا من هذه الآراء :

« ان محمدا قد أبدى في أغلب حياته اعتدالا مسترعيا للنظر ، فقد برهن ـ في انتصاره النهائي ـ على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثال في التاريخ، اذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والاطفال والنساء، وحظر عليهم أن يهدموا البيوت ، أو أن يسلبوا الثمار ، أو أن يقطعوا الأشجار الثمرية ، وأمرهم ألا يجردوا السيوف الا في حالة الضرورة القاهرة ٠٠٠ بل قد رأيناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم اصلاحا ماديا . ويقول لهم : ان نفسا واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء ٠

٠٠٠ ان الغنائم الحربية كانت في ذلك العهد النتيجة العادية لكل جهاد بل يمكن أن يقال انها كانت ـ مع التجارة وتربية الحيوان ـ هي الصناعة الوطنية العـــربية ، فأعلن محمد اباحتهـــا لأتباعه استجابة لضعفهم ، ولكنه حـــددها بقـــواعد دقيقة ، فخصص الجزء الأكبر منها للصدقات ولحاجات الجيش ٠ انه قد حظر ـ في قسمة الأسرى ـ ابعاد

الاطفال عن أمهاتهم ، انه لم يكن ليستطيع أن يغير أخلاق شعبه تغييرا تاما ، ولكنه نجح فى أن يقومه فى نقط كثيرة .

... انه هو شخصيا لم يكن الا رجلا أميا ، كجميع بنى جلدته فى عصره ، ولكنه كان يعلم أن الاله رحيم رحمة لا حد لها ، فأجهد نفسه فى أن يعلو على الطبيعة البشرية ، وأن يقهر فى نفسه الميول الانتقامية ، وهو فى هذا يقول « كاد الحليم أن يكون نبيا » ... بل يمكن أن تكون آلامه التى كان يعانيها ناشئة عن أنه لم يلحق الكمال الذى كان يبغيه للناس . ان اخلاصه لا يمكن أن يكون فى العصر الحاضر موضع شك ، فان حياته كلها تشهد أنه كان يؤمن برسالته ايمانا عميقا ، وانه تقبلها — لا بغير بطولة — كعبء يجب عليه أن يحتمل أثقل أوزانه ...

... ان قوة عبقريته الانشائية واتساعها ، وذكاءه العظيم ، ونظره الصائب الى الحقائق ، وسيادته لنفسه ، وقوة ارادته وحكمته واستعداده للعمل ، وحياته الواقعية كل ذلك يجعل الزيف فى مبدأ رسالته مستحيل القبول ، فكيف يتصور أن ينقلب كاذبا فجأة ، ذلك الذى كان نجاحه يظهر له كبرهان ساطع على تأييد الاله لدعواه ؟ وكيف يمكن أن يجرؤ على تشويه رسالته فى الوقت الذى كان يرى فيه انها مقدسة يؤيدها الاله » (١) ؟

محمد ... حكيما

قال : « ان محمدا كان رجلا مؤمنا بالعالم الروحانى ، انه ذلك الانسان الذى للأشياء الخفية عنده أهمية تفوق أهمية الظواهر الحسية ، والذى عنده تتقدم اللامرئيات على المرئيات والذى يرى أن النظام الروحانى هو النظام الأساسى .. بل انه هو النظام الوحيد الذى يوجد حقا .. انه قبض على الحقيقة العميقة ثم صدع بين بنى الانسان باكتشافه . ان هذا القلب الخلو من كل كذب ، ومن كل ثقافة مزيفة ، ومن كل غرور — قد ظفر دفعة واحدة بالصخرة المتينة (٢) . واذ كان واقعيا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة فقد كان نجاحه فى الحياة العملية — حين وكلت اليه أعمال العالم الخارجى — أتم وأكمل ، لأن المرئى هو « ميناء » الساعة التى عليها

---

(١) انظر صفحات ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، من كتاب « حياة محمد » لمؤلفه ديرمانجيم باللغة الفرنسية .

(٢) هذا تصوير لحالة من يهتدى الى خير مايعتمد عليه وفيه تشبيه بالغريق الذى يعثر فى وسط الخضم على صخرة متينة يتشبث بها فينجو من الغرق .

يرتسم اللامرئي ، ولأنه هو جذر النبتة الحقيقية ، اذ أن ماهو أدنى ـ صورة لما هو أعلى (١) ٠

محمد ٠٠٠ نبيا

بعد أن لخصنا لك شيئا من آراء هذا الكاتب عن النبي صلى الله عليه وسلم كانسان ، ثم عنه كحكيم ـ وجب علينا أن نجمل آراءه عنه كنبي ، ولكن بعد أن نشير الى آرائه في النبوة وآثارها في الانسانية بوجه عام :

« ان النداءات الداخلية هي لتاريخ الانســانية ـ أشبه الأشياء بمفاصل الجسم البشري التي تسمح له بأن يتحرك ويؤدي مهمته في الحياة ، فمن وقت الى آخر ترن دعوة ، وتسمع صرخة في الليل ، وينادي صوت في السكون فيهب اذ ذاك رجل قافز من نومه ، ويسير دون أن يدري الى أين يتجه بالضبط ـ كابراهيم والياس ـ ثم يستمر في سيره بلا راحة ولا فتور ، ويظل يتكلم حتى يوقظ الآخرين من نومهم الثقيل ، وبهذا يتكون سلام الانسانية في سلسلة من الأفعال الحرة ٠

« وهـكذا نهض محمـد ليدعو بني جنسه الى دين واحد هو دين الاله الواحد وليوقظ جزءا من آسيا وافريقية وليحرر من عبودية الجامدين كل الذين يفهمون رسالته الحقيقية ، ولكي يحرر بلاد فارس التي كان النعاس يشملها ، ولينعش المسيحية الشرقية التي شوهتها المجادلات البيزنطية الخالية من الحماسة ومن الاعتقاد المجرد من الوحدة ٠٠

٠٠٠ ان الأنبياء يفرضون أنفسهم على العالم كالقوى الطبيعية العظمى الخيرة : كالشمس والمطر وكعواصف الشتاء التي تصيب الأرض الجرداء لتكسوها بالخضرة في بضعة أيام ، فبثمارهم ينبغي أن يحكم عليهم أن أفضـل براهين رســالاتهم هي تلك العقول المطمئنة والقلوب المفعمة بالسكينة ، والارادات القوية ، والمخاوف المستحيلة الى هدوء ، والأمراض الأخلاقية التي أبرءوا الانسانية منها ، والصلوات التي تصعد الى السماء النقية ٠

« انهم قد هوجموا بالكبرياء العــالمية ، وهم بلا معتمد وبلا قوى مادية ، ومع ذلك فقد حملوا وحدهم سر أعلى أنواع الحرية الذي يمكن

(١) أنظر صفحتي ٨٠ و ٨١ من كتاب «حياة محمد» لدبرمانجيم ٠

أن يلخص في هذه العبارة : « لأن تعصى الناس خير لك من أن تعصى الاله الذى له وحده يجب أن يسجد الجميع متساوين ... »

ان محمدا كان أميـــا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، وليس معناها ـ فيما أرى ـ العامية أو الخلو من التأدب ، وانما الامي هو بالاحـــرى الرجل النقى الذى جمـــع بين الطبيعة وما فوق الطبيعـة والبرىء من الأحكام العقلية والقلبية المتسرعة ، ومع ذلك ، فقد نهض ، لكى يدعو العلماء الى أن يفهموا ما يقولون وليقوم الطرق الملتوية التى يضل فيها من يزعمون أنهم حكماء !

ان الناس حالة سماعهم خطبه الملهمة ، وكناياته الملتئمة مع عصره قد أحسوا بجاذبية تصلهم بالسر الخفى الذى يحوطهم ، وخضعوا للاله فرأوا كيف يستطيعون أن يهدوا وجودهم المؤقت ، وهكذا وجدوا فيه مثالا حيا لا يستطيع الفلاسفة ولا رجال الحكومات أن يقدموه !

ان محمدا قد جاء فى عصر يعد أحد عصور التاريخ المظلمة اذ أن جميع المدنيات ـ من حدود الغال الى أقاصى الهند ـ كـــانت منهـــارة أو مضطربة !

ان دعوة محمد قد أوجدت فى جزيرة العـرب تقـدما غـير قابل للاعتراض ، سواء أكان ذلك فى دائرة الأسرة أم فى دائرة الجماعة ، أم فى الناحية الصحية ، فان حظ المرأة قد تحسن ، وان الفحش والزواج المؤقت والمعاشرة الحرة قد حظرت وقد حرم أيضا اكراه الاماء على اتخـاذ الفحش وسيلة لثراء مواليهن ، كما كان متبعا فى ذلك العهد « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا » .

انه قد أباح الرق ، ولكنه نظمه وضيق حدوده ، وجعل العتق عملا خيرا ، بل كفارة عن بعض المعاصى (١) .

ان أبا ذر دعا بلالا يوما بابن الأمة ، فقال له النبى : « انك لاتزال تشعر بشعور الجاهلية الاولى ! » .

---

(١) لم يبح القرآن الرق ولم ينظمه كما زعم ديرمانجيم ، ولكن الحقيقة هى أنه وجد الرق متغلغلا فى البيئة التى ظهر فيها الاسلام تغلغلا شديد العمق فاقتضت الحكمة الالهية أن يحاربه في هوادة وان يضع في طريقه العقبات الكأداء وأن يرغب المالكين فى العتق ترغيبا قويا ، وأن يفتح أمام المملوكين أبواب التحرر حتى ينبع النفور من هذه الرذيلة من قلوب الامة وعقولها فيكون أشمل في الاجماع على الطاعة ، وأقطع فى محو هذه الرذيلة من الاوامر الخارجية التى تتفاوت معارضـتها كثرة وقلة ، كما أبنا ذلك بشيء من التفصيل في كتاب «الاسلام وحاجات المجتمعات الراقية» .

ان الالهيين والأخلاقيين والفقهاء والمتنكسين ، قد وجدوا فيما بعد في دعوة محمد الاسس الأولية لمعارفهم فاسترشد بها كل منهم فى طريقه الخاص مع حفظ المبدأ الجوهرى وهو أن الاله هو المحور الرئيسى فى كل شيء • لقد اعتمدت المذاهب المختلفة فى تأسيس آرائها المتعارضة على أحاديث حقيقية ، أو مزيفة عزيت الى النبى ، بل ان المشكلات الميتافيزيقية العظمى التى لم يكن محمد يحب أن يلح عليها قد عولجت فيما بعد استنادا الى تلك الأحاديث نفسها • ففيما يتعلق بحرية الفرد مثلا نجد ان الجبرية وخصومهم القدرية قد فتشوا عن أدلتهم فى الكتاب والسنة ، وهذه المسألة قد بسطت بعد ذلك أمام المدرسيين المسيحيين كالقديس توماس وعند بعض المحدثين كبوسويه والجانسينيين والمولينيين بالعبارة التى بسطت بها عند العرب ، وحلت بالحلول التى وضعوها لها •

•• وفى الواقع أن القرآن يلح على بيان القدرة والعلم الالهيين الكاملين ويعلن أن كل شيء آت من الاله ، ولكنه يصرح أيضا بأن الشر الخلقى وليد الارادة الانسانية الفاسدة •

وبالاجمال : يستطيع الباحث أن يجد فى القرآن نصوصا لحرية الفرد أو عليها • وهاتان النقطتان هما طرفا السلسلة التى لم يعثر العقل البشرى بعد على حلقاتها الوسطى • فاذا كان بعض المسلمين ــ وعلى الأخص فى عصر التدهور ــ قد أبدوا انعطافا نحو الجبرية الشرقية ، فانه ليس فى الاسلام ما يضطرهم الى هذه الجبرية على عكس ما كان « ليبنيز » يعتقد مسايرة للرأى العام ، اذ حين سأل أحد الأعراب محمدا : هل يكتفى فى حفظ ناقته بالتوكل على الله ، أجابه قائلا : « اعقلها وتوكل ! »• وحينما قيل له : انه مادام ان كل شيء معلوم لله مقدما ، فان العمل عبث قال : كلا « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » • وهذا معناه : « ساعد نفسك تساعدك السماء » وقال كذلك : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » (١) •

وهذا هو الحل الذى ارتضته الأخلاق ، فنشهد لها بالحكمة (٢) •

القرآن

لننظر الآن فى رأى هذا الكتاب فى القرآن واعجازه ، بعد أن ذكرنا لك رأيه عن النبى ، قال :

---

(١) يظهر أن هذه الحكمة هى للامام على كرم الله وجهه ، لا للنبى صلى الله عليه وسلم كما ذهب اليه «ديرمانجيم» .

(٢) أنظر صفحة ٢٧١ ومابعدها من «حياة محمد» لديرمانجيم بالفرنسية .

« ان كل نبي يجب أن يأتي ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته ، وهذا البرهان يسمى بالمعجزة ، وهو يختلف عما يأتي به الأولياء ويسمى كرامة ، والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة (١) . فان جماله الأدبي الفائق ، وقوته النورانية ـ لا يزالان الى اليوم لغزا لم يحل وهما يضعان من يتلوه ـ ولو كان أقل الناس تقوى في حالة خاصة من الحماسة ـ .

لقد تحدى محمد الأناسي والجن أن يأتوا بمثله ، وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الأمر في القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية ، فان محمدا كان يحتقر الشعراء ، ودفع عن نفسه أن يكون واحدا منهم ، ولكن الامر يتعلق بشيء آخر غير هذه القيمة وهو الفرق بين وحي الاله والهام الشياطين (٢) .

---

(١) نحن نعلم أن القرآن هو المعجزة الاساسية لا الوحيدة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكننا كثيرا مانصادف عند المستشرقين هذا الجزم بأن نبي المسلمين اعترف هو نفسه بأنه ليس له معجزة أخرى غير القرآن ، ولست أدري أين عثروا على هذا الاعتراف ؟ .

(٢) أنظر صفحتي ٢٧٦ و ٢٧٧ من المصدر نفسه .

مظهر القدرة الالهية فى الطبيعة :

« ان الاله الذى يراه محمد فى الطبيعة هو ذلك الخالق ، ذلك الحاكم للعالم الذى كان حسبه أن يقول فى سفر التكوين : « ليكن النور فكان » ، والذى أمامه ـ كما قالت المزامير ـ « هربت البحار » ، وقفزت الجبال ، والذى تسبح بحمده السموات والأرض والشمس والكواكب والضباب هذه هى عبارة المزامير والآن استمع ماقاله القرآن : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون » و « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كلّ دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » .

مظهر القدرة فى التاريخ

قال الاستاذ « كارادى فو » :

ان برهان قدرة الاله عن طريق تاريخ الشعب العبرى مذكورة بوفرة فى التوراة التى فيها :

« انا الذى أخرجت آباءكم من أرض مصر ، وفتحت البحر أمامهم » .

والقرآن يتخذ هذا البرهان نفسه ، ولكنه لا يمنحه من القوة والفصاحة المقدار الذى منحته البراهين السابقة ، أى براهين ظهور القدرة الالهية فى الطبيعة من الممكن أن يلاحظ أن القرآن قد اختار للاستدلال على الاله أروع مافى الطبيعة وأرهب مافى التاريخ » ٠

كتب الاستاذ « كارادى فو » قبل هذه الجملة الأخيرة وبعدها عبارات لا تتفق مع العقيدة الاسلامية ، ونحن – وان كنا لا نفرض على العلماء المستشرقين الايمان بالاسلام فرضا – نرى أن هذه العبارات – من الناحية العلمية البحتة – غير مسلمة ، بل هى ضعيفة ، لأنها مؤسسة على الفروض والتخمينات ، أو على الاستنباط الخاطىء ، ولكننا آثرنا أن نتخطاها الآن ، لنعود اليها حين نعرض لآراء القسم الثانى من المستشرقين ، وهى الآراء التى اصطدمت مع القرآن لسبب من الاسباب التى ذكرناها فى الفصل السابق ٠

مظهر القدرة فى المعجزات

نحن نعلم أن أهم معجزات النبى هى القرآن ولا نكلف الاستاذ « كارادى فو » الايمان بهذه العقيدة ، ولكننا نكتفى منه فى المقام بتلك الملاحظة القيمة التى سجلها فى العبارة الآتية :

« ان القرآن قد أبان ابانة جيدة الشروط التى يجب أن تجعل البرهان المؤسس على المعجزة منتجا ، اذ اشترط وجود الاستعداد القلبى لتصديق المعجزة عند الذين يشاهدونها ، فقال : « **واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ٠ ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ماكانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون** » ٠»

وقال الاستاذ « كارادى فو » : « ان علم الله يظهر فى القرآن كشرط أساسى لقدرته ، أو كناحية من نواحيها ، وهو وارد فى ذلك الكتاب (القرآن) بطريقة يقينية بحيث لا يقل فى ثبوته عن القدرة نفسها « **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين** » ٠

ان القرآن يؤكد فى وضوح روحانية الاله (١) التى يلاحظ صلتها الوثيقة بالوحدانية والقدرة والعلم والجلال ، كما يؤكد أن الله هو الذى يحيط بكل شىء ولا يمكن أن يحـــاط به ، وهو المنزه عن كل مايلحق الابدان ، وهو أسمى من طبيعة الانســـان ومن طبائع جميع الكائنـــات الأخرى ، وهو أرفع من كل ما عداه رفعة تجعل حتى رؤيته بحاسة البصر مستحيلة : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

من هذه النقطة ـ وهى نقطة الجلال الالهى ـ نشأت بين المسلمين مشكلة من المشكلات الكبرى احتدم حولها الجدل فى عصورهم الفكرية الأولى ، كما احتدم بين المسيحيين من قبل وهى مشكلة رؤية الاله فى حالة الغيبوبة أو فى مقام الشهود .

ومن الملاحظ أن الفوز بهذه الرؤية ـ فيما يرى القرآن ـ أمر شديد العسر ، ففى السور التى تحوى القصص التوراتية يرى القارىء هذا العسر جليا : اذ يشاهد أن آدم لم ير الله حين كلمه ، وان نوحا لم يفز بهذه الرؤية بعد نجاته من الطوفان ، وأن ابراهيم ـ مع أنه خليل الله ـ لم ير الا ملائكته ، وأن موسى حين طلب أن يراه أجابه بقوله : « **لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت اليك**» . وأن محمدا لم ير الا الروح الأمين : الملك جبريل ، وأن الأوصاف القرآنية للجنة تنص على أن المختارين يستمتعون بمرأى مساكن جميلة ، وحدائق وحور عين ، ولكنها لم تنص على أنهم يستمتعون بمرأى الاله ، أما فى حالة الحكم بينهم فهم سيحشرون فى حضرة الاله ، ولكن دون أن يفهم أحد الكيفية التى سيكون بها هذا الحضور ، أو الطريقة التى سيتحقق عليها !

نعم ان فى القرآن آيات يقول بعضها : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين يديهم وبأيمانهم » ، والبعض الآخر يقول : « **الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شىء عليم** » واذا

---

(١) معنى هذه الجملة : ان الالوهية في الاســلام ليست مشوبة بشــوائب المادة ، كالالوهيات في بعض الديانات الاخرى .

فتشنا فى كتب التفسير ألفيناها لا ترى فى هذه الآيات الا تشبيها وتمثيلا » ٠

لاريب أن الاستاذ « كارادىفو » لم يفهم هذه الآيات على حقيقتها فتوهم أن الذى يسعى بين أيدى المؤمنين وبأيمانهم فى الآخرة انما هو الله نفسه ، لأن القرآن أطلق على هذا الساعى اسم النور ٠ وقال فى آية أخرى : « الله نور » ولعل الرجل معذور فى هذا الفهم ، لأنه أجنبى مهما تكن درايته باللغة العربية ، فانه قاصر عن فهم اسرارها ،ولاسيما أسرار القرآن ، ولكن الذى نأخذه عليه هنا هو أنه اتخذ هذا الفهم الملتوى أساسا لنقد تخبط فيه تخبطا لا يليق بالعلماء ٠ وقد نعود الى هذا النقد حين نعرض لقسم الآراء الباطلة التى تخبط فيها المستشرقون ٠

أثبت الاستاذ « كارادى فو » بعد هذه النقطة أن القرآن عرض لمشكلات : أزلية البارى وثباته وبدء الخلق ومصير العالم فى الحياة الأخرى ، فقال فى الأولى :

« ان أزلية الاله مثبتة فى القرآن ، وان لم يكن قد ألح عليها كثيرا » ٠

وقال فى الثانية : « ان ثبات الاله يتجاوب فى القرآن مع أزليته وأبديته وعلمه ، أو هو نتيجة لها ، وهذا الثبات الالهى يتضح على الاخص فى ادارته للكون : « سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » ٠ غير أن الثبات الالهى الوارد فى القرآن يتعلق بالنواميس التاريخية والاخلاقية ، أما عن الثبات الميتافيزيقى فلم يتساءل كيف يمكن التوفيق بينه وبين ايجابية الاله وتأثيره فى الكون ؟ » .

ولست أدرى كيف يعد الاستاذ « كارادى فو » القول بثبات الاله مع القول بايجابيته فى القرآن أمرا غريبا مع أن أرسطو ـ وهو الذى أسرهم بفلسفته ـ قرر أن الاله ثابت ، وانه هو المحرك الأول لجميع المتحركات ٠٠٠ ومع أن الاجماع منعقد على أن التغير دليل الحدوث ٠ والتحرك دليل التأثر بالمحرك والثبات لا يتعارض مع الايجابية . وأن الفرق جلى بين من يفقد الحركة لعجزه عنها وبين من يتجرد منها لتنزهه عنها ٠

وقال فى المشكلة الثالثة : « ان فكرة بدء الخلق ليست محددة فى

القرآن تحديدا تاما ، لأن نصوصه كنصوص التوراة لم ترفض وجود الكاءوس (١) . الذى صنع منه العالم » .

وقال فى المشكلة الرابعة : « ان الانسان ليدهش من العبارات غير المحددة الواردة فى القرآن فيما يختص بأبدية الجزاء أو انتهائه : « فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ » .

ويعلق الاستاذ « كارادى فو » على هاتين الآيتين بما يفيد أن فكرة أبدية الجزاء لم تؤخذ صراحة من القرآن ، وانما هو يلمح الى الأبدية ، ولكنه لا يصرح بها ، وان المتكلمين هم الذين قالوا بالأبدية بعد تأثرهم بالفلسفة الاغريقية .

ولست أدرى مم استنتج الاستاذ « كارادى فو » هذا الحكم ؟ ان كان قد استنتجه من التعليق على دوام السموات والارض فان القرآن لا يريد السموات والارض الموجودتين الآن ، وانما يريد ماعناهما بقوله : « يوم تبدل الارض غير الارض والسموات » . وهذه خالدة شبيهة بالعالم الآخر الذى خلقت فيه . وان كان قد استنتجه من التقييد بالمشيئة الالهية فان عذا التقييد لا يفيد الا امكان الزوال اذا تعلقت المشيئة به . والاستاذ بصفته عالما يعرف أن كل ماعدا الله فى نظر الاسلام ممكن ، فنص القرآن على امكان الزوال فى هاتين الآيتين لا يفيد ضرورة تحقق هذا الزوال ، بل بالعكس هو يفيد تحقق الدوام وامكان الزوال .

من هذا البحث الوجيز الذى قدمه الينا الاستاذ كارادى فو عن القرآن ومن النصوص القرآنية التى أشرنا اليها آنفا يتبين جليا أن القرآن هنا قد عرض لاحدى عشرة مشكلة هى من أعوص المشكلات الفلسفية وأعظمها خطرا ، وهى : (١) الألوهية . (٢) الوحدانية . (٣) القدرة . (٤) التنزه عن الانسال . (٥) مخالفة واجب الوجود لكل من عداه من الموجودات . (٦) علم الله بكليات الكون المجردة وأجزائه المتحيزة . (٧) استحالة ادراكه بحاسة البصر . (٨) أزلية البارى . (٩) ثباته . (١٠) نشوء الخلق . (١١) مصير العالم فى الحياة الأخرى .

---

(١) الكاءوس : هو العنصر الذى خلقت منه المخلوقات ، وهو الماء عند فريق من الفلاسفة ، والهواء عند فريق ثان ، والنار عند فريق ثالث ، وشيء غير محدود عند فريق رابع ، والعماء عند فريق خامس ، والاخطبوط المبهم عند فريق سادس ، والهيولى عند فريق سابع .

وليس هذا هو كل ماعرض له القرآن من المشكلات الفلسفية · بل هناك نظريات أخرى قد نعود الى دراستها فيما بعد ·

ولا نحسب بعد ذلك أن كتابا يعرض لهـذه المشـــكلات الفلسفية المعقدة ويكلف معتنقيه النظر فيها يصح أن يتهم بأنه اضطهد الفكر ، وحارب النظر ! ولكنه الجهل أو الغرض هو الذى يحيد بصاحبه دائما عن الصراط المستقيم ·

الأخلاق الفلسفية فى القرآن

بعد أن انتهى الاستاذ « كارادى فو » من بسط الهية القرآن عرض لما فيه من أخلاق فلسفية ، فكانت ابانته اياها بمثابة رد قاطع على أولئك المتفيهقين والجاهلين الذين زعموا أن القرآن ليس فيه الا نوع من الأخلاق العملية الساذجة المألوفة عند الشرقيين : من الأمر بالصدق والأمانة ، والنهى عن الكذب والخيانة وما شاكل ذلك ، فأثبت لهم أنه قد احتوى بين آياته على أخلاق فلسفية هى أسمى درجات النظر قال :

« ان علم الله وقدرته وحكمته ليست مقصورة فى القرآن على زمن ايجاد الكائنات ، بل هى تحوطها فى مستقبلها ، لأن هذه الكائنات لها عند الله غاية معينة قصد اليها من ايجادجموعة الكونية . وقد أبانهذه الغاية بكل بساطة فى قوله « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ·

وفوق ذلك فان الباحث يلاحظ فى القرآن أن كل جزء من أجزاء الطبيعة قد صنع لصلاح المجموع ، وللوصول الى الغاية القصوى منه · ولاريب أن هذه هى عينها نظرية التفاؤل المستنبطة من الادراك الأولى للاله ، وهو أنه عالم قادر خير ، كل مايفعله هو بقدر ، وهو للصالح العام : « **والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل شىء موزون · وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزل الا بقدر معلوم** » ·

لاريب أن من لديه دراية بالفلسفة يلاحظ أن من أجل النظريات التى سمت بأرسطو الى الأوج انما هى نظرية تضحية الجزء للمجموع التى أعلن فيها : انه مادام الكل هو فى مجمـــوعه خير فلا أهميـــة للجزء ، ومادامت الغاية خيرا فلا يؤبه الى الشرور الجزئية العارضة فى الوسائل ؛ وذلك كالمطر ، فانه ضرورى للصالح العام ، فاذا أفسد حبوب فقير أو خرب بيت عجوز ـ فان هذا لا يخرجه عن صلاحيته ولا ينقله من مرتبة الخير الى دركة الشر · فاذا ألفينا هذه النظرية فى القرآن كان ذلك برهانا

على أنه واجه أعوص النظريات الأخلاقية ، كما واجـــه أدق المشكلات الفلسفية ٠

عرض الاستاذ « كارادى فو » بعـــد هذه النظرية لنظرية القضاء والقدر فى القرآن فقال ما مجمله :

« ان القرآن قد ألح كثيرا على ذكر القدر ، ولكن على الرغم من هذا اذا فحص الباحث بعقل هادىء وبلا تحيز فقرات هذا الـــكتاب المتعلقة بالقدر ـ تبين له أنها ليست جبرية الى الحد الذى ظنه كثير من الناس وانها ـ على الرغم مما تحتويه من ارعاب من القدر ـ ليست متعارضة مع العدالة أقل تعارض ٠ وهاك مجمل الافكار التى تحتويها تلك الآيات فيما نرى (١) » :

« ان الاله يعلم كل شيء قبل وقوعه ، ومن ثم هو يعلم كل السيئات وما يتبعها من عقوبات ، والحسنات وما تستتبعه من مثوبات ، لأن كل شيء قد كتب قبلا فى كتاب محفوظ ، ولا يعنينا أن يكون لهذا الكتاب وجود حقيقى أو هو رمز لعلم الله بكل شيء ، وانما المهم هنا أن هذا التعبير يعادل من الجهة الفلسفية تأكيدا حقيقيا لسابقية علم الله بكل ماسيكون : « ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير » ٠

وليس معنى هذا أن المصيبة تصيب أحدا ظلما ، فانها اما أن تصيبه عدلا واما أن تصيبه فى سبيل صالح المجموعة ، وهو يعوض عنها جزاء فى الحياة الأخرى ، وليس معناه كذلك أن القدر السابق يلغى الحرية الفردية ، كلا ، وانما معناه أن الاله لا يجهل شيئا مما سيكون ، وأن للفرد الاختيار بين الطريقين ، ولهذا لن يستند فى جزائه الى ماهو مكتوب فى الكتاب السابق ، وانما يسنند فيه الى الكتاب الذى سجلت فيه أعماله ، وفى هذا برهان على أن الجزاء منوط بالعمل الفعلى لا بالتقدير قبل الوقوع ٠

والى هذا يشير القرآن بقوله « انا نحن نحيى الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى امام مبين » لأن الكتاب المذكور فى الآية الأولى لم يخرج عن كونه منهج الكون الذى قدر الاله فيه سيره كله ٠ أما الكتاب الآخر فهو سجل قيد فيه ماعمله كل فرد بدقة ٠ « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »٠

---

(١) أى الاستاذ كارادى فو ٠

« غير أن المرعب فى هذا الموضوع هو تلك الآيات الأخرى التى تقول مثلا : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » . « يضل من يشاء ويهدى من يشاء » .

« فنحن اذا نظرنا الى مثل هذه الآيات على حـــدة أى منفصلة عن الآيات الاخرى التى تقيدنا ألفينا أنها ترمى الى أن الله قد أجبر كلا على ما فعل ،ولكننا اذا نظرنا اليها،كما يجب فى ضوء الآيات الأخرى،تحققنا انها لا تلغى الاختيار الفردى ، وانه لم يكتب فى الضـــالين الا من سيغلقون قلوبهم عن سماع الهدى ، واليك هذه الآيات :

((ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)) و ((يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين » .

« لا شك أن ماتحتويه هاتان الآيتان الأخيرتان عظيم الأهمية لأنه تصريح بأن الفريق الذى عين فى كتـــاب القدر للجحيم ليس مؤلفا من أشخاص عاديين سيؤخذون على غرة حين يعترض بالظلم أو الاكراه وانما هو مؤلف من أشخاص سيصمون آذانهم عن سماع الهدى ، ويغمضون أعينهم عن مشاهدته ، ويحـــولون قلوبهم عن تعقله ... وكل ذلك بارادتهم الحرة ، واختيارهم البعيد عن كل تأثير ، اذ ليس بين المقدر عليهم وسلوكهم العملى أية صلة واقعية تجذبهم قسر ارادتهم الى ماقدر عليهم ».

هذا هو مجمل آراء الاستاذ « كارادى فو » فى المشكلات التى عرض لها القرآن ودار حولها الجدل فى البيئات الاسلامية قبل ترجمة الفلسفة الاغريقية والتى تحمل بين ثناياها أقطع الردود على دعـوى محـــاربة الاسلام للفكر والنظر .

وينبغى أن نعيد هنا ما أسلفناه من أن للاستاذ « كارادى فو » آراء لا تتفق مع روح الاسلام سنعرض للرد عليها فيما بعد ، والآن نضيف الى ذلك أنه أحيانا يعبر عن الآيات القرآنية بقوله : « قال محمد ، وأحيانا أخرى بقوله : ان محمدا لا يرى كذا ، ويقصد القرآن . ونحن قد ضربنا صفحا عن هذه الهفوات لأنها لا تعنينا فى بحوث هذا الكتاب ، ولأنه ليس فى قدرتنا أن نجعل هذا الاستاذ المستشرق مسلما بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، فاكتفينا منه بما أثبته من شهادات قيمة للقرآن فيما نحن بصدده من احتوائه على النظريات الفلسفية الهامة وحلولها القويمة .

كبوات مستشرق

أما الآن ، فاننا سنحاول دراسة نوع آخر من المستشرقين الذين تناولوا الاسلام ، وهم الذين لا تعد أخطاؤهم فيما كتبوه هفوات كهفوات من أسلفنا الحديث عنهم ، وانما تعد سقطات ضخمة ليس من السهل أن نتسامح فيها ، أو أن يمر بها التاريخ مغضيا عنها أو متهاونا في شأنها ·

واول هؤلاء المستشرقين الذين وقع أختيارنا عليهم لنحاسبهم هنا على مافرطوا فى جنب الحقيقة حسابا عسيرا سداه المنطق ولحمته النزاهة والهدوء ــ هو الاستاذ « بول كازانوفا » الذى كان ــ حين ألف رسالته التى نحن بصددها ــ أستاذ اللغة العربية وآدابها فى «الكليج دى فرانس» ثم ندب بعد ذلك للتدريس فى جامعة القاهرة ، ثم توفى فى مصر ، واحتفلت الجامعة بجنازته احتفالا عظيما · وهاتان النقطتان الأخيرتان تحملاننا على الاهتمام بتفنيد آرائه الباطلة عن القرآن الكريم والنبى الجليل خشية أن يكون الشباب من تلاميذه قد تأثروا بهذا الزيف الخطير ·

عنوان هذه الرسالة « محمد ونهاية العـــالم » وغاية مؤلفها منها ــ فيما يظهر ــ هى محاولة اثبات أن القرآن قد أضيف اليه بعد وفاة النبى مادعت اليه الحـــاجة فى نظرى أبى بكر وعمر مثل الآيات التى صرحت بأن الساعة من الأمور التى استأثر الله بعلمها ، بعد أن لم يتحقق ما أخبر به النبى من أنها ستقوم عندما تنتهى مهمته ، وقد يكون ذلك فى حياته أو على أثر موته مباشرة ·

عرض هذا الأستاذ لتلك المسألة ، فبحثها البحث الذى هيأته له بيئته ودراسته ، وانتهى فيها الى النتيجة التى شاءها له منطقه والتى سنقفك عليها وعلى مناقشتها بعد قليل ·

أما السبب الذى حدانا الى مناقشة هذا البحث الآن فهو أنه يعد أول بحث من نوعه تعرض لصحة القرآن أو تبديله واضافة شيء اليه ، وانه لهذا كان حدثا خطيرا أثار ثائرة كثير من العلماء الباحثين ، فحمل فريقا منهم على متابعته ، ودفع فريقا آخر الى مهاجمته · وسوف يبقى مثار جدل عنيف مالم تقم الأدلة على بطلانه · ولاريب أن هذه الأدلة اذا

لم يسطع نورها من حصون الاسلام فعليها العفاء ، لأنه من غير الممكن أن يتيسر للمستشرقين الذين يخالفون « كازانوفا » فى هذا الرأى الخاطىء مثل ما يتيسر للمسلمين المثقفين من البراهين على بطلانه .

لهذه الأهمية «العظيمة» التى يمثلها هذا الكتاب رأينا من الواجب علينا أن نتصدى لمناقشته لنساهم فى نقاش بحث ماكتبه عالم شهير عن الاسلام وأثيرت حوله زوبعة من الجدل ، ولاتزال تثار ، وستظل ماشاء الله لها أن تظل ، ولن تخمد الا بالأدلة القاطعة التى تقام على بطلانها من جانب باحثى المسلمين .

وقد عبرنا هنا بكلمة « نتصدى » لأننا نعلم أن بعض القــراء سيسخطون على هذا البحث ويقولـــون : مالنـــا ولاثارة مثل هــذه المناقشات ؟ افما كان يجمل بنا ان نكتب فيما هو أنفع من ذلك ، وان نترك أمثال هذا البحث تجنبا لايقاظ الفتن وبعـــدا عن تجرؤ النـــاس على قداسة القرآن .

ولكننا نجيب هؤلاء مقدما بأننا لو سمعنا نصائحهم لكان مثلنا كمثل النعامة التى تخفى وجهها ظانة ان الصياد لا يراها ما دامت لا تراه ! فتكون النتيجة أن نذهب ضحية هذا الحمق ، واذن فقد وجب علينا الا نجبن أمام هذه المثالب التى وجهها خصوم الاسلام اليـــه ، والا ننزوى فى اركان الخمول راجين أن نعود الى الظهور بعد مرور العاصفة فتكون النتيجة ان تجتاحنا وتهـدم علينا الأســوار التى انزوينا فى اركانها ولم ندفع عنها غوائل العدوان .

على اننا سنعود الى اولئك الذين عســاهم يعترضــون علينـــا فنرميهم علنا بالتجــافى عن روح الاســلام ونص القرآن الذى يقول « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » ويقول « وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » والذى قدم الينا أرفع المثل للجدل المنطقى المؤسس على الحجة القاطعة ، وليس هذا فحسب ، بل ان حياة النبى العملية كانت كلها أنموذجا من نماذج الشجاعة والجهاد والاقدام والنضح عن العقيدة ، ولم يؤثر عنه مرة واحدة فى حياته انه قال : « طأطىء رأسك للعاصفة تمر » بل أثر عنه انه قال : « والله لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يســـارى على أن أترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وبناء على كل ما تقدم يجب علينا أن نواجه هذه الفكرة بكل ماأوتينا من قوة ومعرفة ، غير اننا آثرنا قبل أن نبسط هذا البحث أن نترجم لك

شيئا من العبارات التى صدر بها هذا الاستاذ رسالته والتى تحمل كثيرا من معانى الاجلال لنبى المسلمين لنسجلها على كاتبها قبل أن نخوض فى أخطائه العلمية ومناقشتها ٠

وهاك هذه العبارات « لكازانوفا » :

« قبل الدخول الى أعماق المسألة أحرص على أن أعلن اننى أطرح بادىء ذى بدء كل نظرية تميل الى الارتياب فى اخلاص محمد ! ان كل تاريخ هذا النبى يبرهن على ان خلقه واقعى جدى محمود ٠ ينبغى الوفاق على أن النبى كان رجلا ذا ذكاء عظيم ، فان الكيفية التى استطاع بها أن يحرز الغنى والتقدير ، بعد أن كان معدما يتيما ، مقدرا له منذ الطفولة أن يقذف بين أحضان المتربة والبأساء ، وان نضج عقله وحكمته اللذين برهن عليهما عند بدء الوحى اليه ، وان الفن الذى عرف كيف يجمع به قبائل العرب برغم انقساماتهم التى دامت عدة قرون ، وكيف يميز به ما ينبغى أن يبقى من دساتيرهم وما ينبغى أن يلغى منها ، وان ابداع أسلوبه الذى لا نظير له ، بل الذى لم يستطع أى عربى أن يدرك مااشتمل عليه من أفكار — كل ذلك يدل على انه كان لديه فكرة واضحة عن الحقيقة، وأن الحلم والخيال لم يكونا ميزتى عبقريته ، ولكن ميزتى هذه العبقرية كانتا الذوق وموهبة حسن الاتجاه فى الفهم والعمل ٠

وأى فائدة كانت تعود عليه فى مبدأ مهمته من أن يقدم الاخيلة المحضة الى الناس فى صورة حقائق والهيات ؟ هل يمكن أن يفترض أن الطمع فى أن يحكم مكة والجنس العربى والعالم أجمع قد استولى عليه فى ذلك العصر المتأخر (١) من حياته ، وانه لكى يحقق هذا المشروع الهائل فكر فى أن يكون رئيسا دينيا ، وبهذه الطريقة يصبح قويا كل القوة ؟ ٠

ولكن هذا لا يمكن أن يتفق مع ميله العادى الى العزلة ، ولا مع تلك الظاهرة التى لا تقبل الاعتراض ، وهى انه ظل الى عهد البدء بمهمته بعيدا عن الحياة السياسية ، ولا مع تلك العقلية العربية الساخرة المرتابة الاجنبية — ولو فى ذلك العصر على الاقل — عن النظر التنسكى : فلو كان الطمع هو الذى دفعه لوجد فى نفسه من سداد الرأى ما يحمله على أن يسلك طريقا آخر أقرب وأكثر مباشرة للحصول على التأثير الذى كان مولده وثروته(٢) قد صيراه جد مشروع ، بل كيف كان يتشدد كل ذلك

---

(١) يقصد بكلمة العصر المتأخر الوقت الذى بدأ فيه النبى بالصدع برسالته وهو زمن بلوغه سن الاربعين ٠

(٢) يقصد الثروة التى أحرزها النبى من تجارته أولا ومن زواجه بالسيدة خديجة ثانيا ٠

الزمن فى أن يفرض على المكيين تلك المعتقـــدات التى كانت تظهر لهم مضحكة والتى ـ مع بعدها عن ان تحقق له السلطان ـ كانت تتضافر على نزع تقديره من نفوسهم أنه لم يقتنع بانه يجب عليه أن يبحث عن أعوان خارج مكة وضدها الا فى الوقت المتـــأخر وبعد أن يئس من أســباب انتصاره » .

« ان طريقته فى العمل ، انما هى طريقة رجل ملهم مقتنع بأن جميع الناس مثله سيعترفون بالهية أصول الكلام الذى سمعه ، والذى يردده هو بكل بساطة ودون أن يسأل نفسه لحظة واحدة : هل اذا وفق بين كلامه وعقلية معاصريه يمــكن أن يكون حظه فى اقنــاعهم أعظم من حظه الحاضر ؟ غير انه حين أصبح فى المدينة على رأس جيش هجر الاقتصار على الحماس الاول ، اذ من الواضـــح انه لو ظل منحصرا فى ذلك التحمس البحت بكل بساطة لسارع حزبه الى الانحــلال ، وما رأى ألبتة انتصار مذهبه ، فبعد أن كان نبيا على نهج أسلافه صار رئيسا دينيا وعسكريا . واذ ذاك بسط مزاياه الرئيسية كقائد ومنظم .

كان محمد يرى الغاية ويتبعها بفطرته كسياسى مستنير ، وبالهامه كنبى مخلص (١) » .

الآن وبعد أن انتهينا من هذا النص الذى أثنى فيه المؤلف على النبى صلى الله عليه وسلم وسجل فيه عبقريته واخلاصه ومقدرته السياسية . وقبل أن نبدأ فى عرض آراء هذا الاستاذ الخاطئة ومناقشتها، كما وعدنا قارىء هذا الكتاب من قبل ـ يجب علينا ان نقــف هنيهة عند مناقشة الفكرة التى فى الهامش رقم /١ من هذا الفصل ، وهى : كيف يمــكن التوفيق بين البؤس المادى الذى نشأ فيه النبى ، وبين القول برفعة أسرته؟

لم يستطع المستشرقون أن يحلوا هذه المشكلة، فتخبطوا فيها تخبط العشواء فذهب « كازانوفا » الى القول بأن رفعـــة مولد النبى هو فى الاغلب خرافة ، ولو كان حقا لهيأ له مولده مركزا عظيما قبل أن يغتنى ، ولكن المأثور من سنته لم يحدثنا عن شىء من ذلك . وقد اعتنق «كاتيانى الايطالى » فى كتابه « تاريخ الاسلام » (٢)

وكذلك « جريج » و « فوليرس » هذه الفكرة الخاطئة وأيدوها فى مؤلفاتهم بأدله هى نسيج من الفروض والاوهام .

---

(١) أنظر صفحة ٦ ومابعدها من كتاب «محمد ونهاية العالم» .

(٢) هو كتاب ضخم في تسع مجلدات .

غير أن أسخف أفكار هؤلاء الاساتذة جميعا هي فكرة «الاب لامانس» التى تزعم أن محمدا طفل فقير مجهول المولد تبنته أسرة عبد المطلب! ومن العجيب ان هذا الاستاذ المضحك قد اتخذ دليلا على هذه الفكرة التى هى « عار على صاحبها وحده ، قول القرآن : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ؟ »

كنا نحب أن نسهب فى اظهار سخف هـــذا الرأى ، وضآلته فى ميزان العلم بسبب ما احتوى عليه من مخالفة أوليات المنطق ، بل أوليات التعقل الساذج ، ولكنا فضلنا الايجاز لانه غير جدير بالاسهاب ، اذ لو كان صحيحا لفضل العرب المتكبرون المتعجرفون أن ينمحوا الى آخر طفل من أولادهم على أن يحنوا رءوسهم لرجل شريد مجهول المولد ! وما أجاب زعماؤهم كسرى حين سألهم عن نسبه بأنه خيرهم حسبا ونسبا ، وما ارتضى زعماء القبائل تحكيمه بينهم حين اختلفوا على وضع الحجر الاسود، وما بايعه أبو طالب الجبار على مناصرته برغـم انه لم يعتنق دينه ، وما تردد زعماء مكة فى الاقدام على قتله حين ضايقهم بالدعوة الى الاسلام ، كما فعلوا رهبة من أسرته ، وما شـــج حمزة رأس أبى جهل حين جرؤ على شتمه ، ولمنعت العنجهية المغالية أسر خديجة وأبى بكر وعمر وعثمان من مصاهرته ، ولرأينا أفانين الهجاء وضروب السب والاقذاع تتجه الى مولده وأسرته كما كانت العادة المألوفة عند العرب ، وما أستطاع أن يجابه عظماء العرب بذكر أجـداده فى بيئة كان نصـــف موهبتها ينحصر فى حفظ الانساب ، وأخيرا لو كان كذلك ، ما رأينا له أخوالا من أسرة بنى النجار بالمدينة ، وهى فرع من قبيلة قريش المتكبرة التى يستحيل عليهـا أن تزوج ابنتها آمنة رجلا وضيعا ؟

هذا ولا نريد أن نستمر فى سرد الادلة الناصعة على بطـلان ذلك الرأى ، لانه لا يبعد على هذا القسيس أن يزعم أن كل هـذه منتـحلات وضعها المسلمون ليموهوا بها على العقول ، كما تعود كثير من المستشرقين أن يتهموهم ٠٠٠ الا اننا نحب أن نذكر لك هنا على سـبيل الاستئناس رأى الاستاذ « كارادى فو » فى هذه الفكرة السخيفة ٠ قال :

« ان الاب « لامانس » الذى يلتقط بكل سرور جميع الاشـارات البسيطة التى من شأنها أن تحط من مقادير عظماء رجال الاسلام الأولين قد ظن أنه يمكن الارتياب فى منشأ محمد ، فأخـذ الآيات المذكورة فى السورة الثالثة والتسعين من القرآن :

« ألم يجدك يتيما » الى آخره على ظاهرها ، فاتخذ من محمد طفلا يتيما نشأ من مولد خافت ، تبنته أسرة عبد المطلب ، ثم اســـتغله بنو هاشم فيما بعد كسلعة للايجار !

ونحن يظهر لنا أكثر بساطة أن نرى في هذه السورة دعوة الى الاتعاظ .. فكأنها تقول كل نفس بطبيعتها فقيرة شبيهة بيتيم آواه الاله ثم أغناه (١)

ان الغاية الرئيسية التى قصد اليها « كازانوفا » من كتابه « محمد ونهاية العالم » هى اثبات ان الاسلام ــ وعلى رأسه القرآن ــ قد حدثت فيه بعد وفاة النبى تبديلات جوهرية قام بها خلفاؤه لأغراض فى نفوسهم وقد حاول التدليل على صحة هذه الفكرة بأدلة ضعيفة واهية ، أجهـــد نفسه فى تقويتها ودعمها بكل ما أوتى من علم ومقدرة على الجدل . وهاك موجزا من عبارته التى بسط بها غايته حتى تتيسر لك متــابعة نقاشها وابطالها لأن محاولة ابطال الدعوى قبل بسطها وايضـــــاحها ضرب من العماية ، كما يقول الامام الغزالى .

قال « كازانوفا » انى أؤكد أن مذهب محمد الحقيقى ان لم يكن قد زيف فهو على الأقل ستر بأكبر العنايات ، وان الأسباب البسيطة التى سأشرحها فيما بعد هى التى حملت أبا بكر أولا ثم عثمان من بعده على أن يمدا أيديهما الى النص المقدس بالتغيير ، وهذا التغيير قد حدث بمهارة بلغت حدا جعل الحصول على القرآن الأصلى يشبه أن يكون مستحيلا » .

هذه هى النظرية التى أراد اثباتها فى هذه الرسالة . ومن براهينه على صحتها ما يأتى :

« اذا سلمنا بأن القرآن الحالى كله حقيقى ، فاننا نلاحظ أنه لايوجد فيه أى تصريح عن الآراء السياسية ، ولا يشتمل على أية قاعدة تطبق على السلطة الدنيوية ، ومن ذلك تنبع النتيجة الأولى التى تسود التـــاريخ العربى سيادة تامة ، وهى أنه نشأ على اثر موت النبى حزبان متعارضان: أعلن أحدهما ان الامام أو السلطان قد عينه النبى ، وقد وضع هذا الحزب للامامة قواعد متينة ثابتة ، وصرح الحزب الآخر بأن هذه المسألة ليست مما يكترث لها الدين وانها لهذا يجب أن تعالج بحلـــول دنيوية محضة .

---

(١) انظر صفحتى ١٢٩ و ١٣٠ من الجزء الثالث من كتاب « مفكرو الاسلام » للاســـتاذ كارادى فو .

والحزب الاول من هذين الحزبين هو حزب الشيعة : الذى كان دائمة حزب المعارضة بالمعنى الكامل ، والذى ضم بين دفتيه المتضايقين والخياليين والعصاميين ، والذى اشتهر بعقائد ميتافيزيقية وتنسكية يعد أكثرها اجنبيا عن العقلية العربية الخالصة ، والذى لم يستطع أن يكون حكومات ثابتة الا بين الفرس والمغاربة ، والذى لم ينتصر الا نادرا ، والذى كان العرب يعدون أنصاره دائما خارجين على الاسلام .

« غير ان هذا الحزب مع ذلك قد بقى ، وسر بقائه هو أنه أجاب عن هذا السؤال الآتى الذى لابد من الاجابة عليه ، وهو : لماذا نرى القرآن ـ وهو الذى لم يقتصر على تحديد العقيـــدة ، بل حدد الأخلاق والحقوق وقوانين الاسرة ـ لم يعن أية عناية بهذا العنصر الذى ليس أقل جوهرية للمجتمع مما عنى به ، وهو النظام السياسى ؟

« وعند سكوت القرآن كوحى الهى عن هذه المسألة ، لماذا أهمل النبى معالجتها بطريقة شخصية ؟ ولماذا لم يعمل على تثبيت انتقال السلطة التى كان مدينا بها لنبوته ، والتى لم يكن أحد بعده يستطيع عقليا أن يتلقاها الا عنه وحده ، لأن محمدا اذا كان اماما للعرب لم يكن كذلك لانه كان قرشيا من اسرة كذا أو كذا وانما كان اماما لأنه نبى ، ولهذا يجب أن يكون الاعتراف بخليفته تابعا لهذا النظام عينه ، وبما أن النبوة لا تتجدد بعده فعلى الأقل كان ينبغى أن يكون تعيين الخليفة ناشـــئا من مصدر نبوى » .

على هذا الاعتراض أجاب الشيعة بجواب هو أصل مذهبهم ، وهو أن النبى لم يهمل هذه المسألة ، بل عنى بها كل العناية ، وعين الامام الذى يخلفه .

يشير الاستاذ « كازانوفا » بجواب الشيعة هذا الى رأيهم الذى نقله ابن خلدون عنهم فى مقدمته فى مسألة الامامة وهو الذى جاء فيه ما يلى:

« ومذهبهم جميعا متفقين ـ هو أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الأمة ، بل يجب عليـــه تعيين الامام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن عليا رضى الله عنه هو الذى عينـه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويئولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة قال « كازانوفا » بعد ذلك :

« على عكس اجابة الشيعة على هذا السؤال اجاب ابن خلدون ، وهو فى هذا الجواب يمثل آراء اجماع المسلمين فقال :

« وشبهة الامامية في ذلك انما هى كون الامامة من أركان الدين كما يزعمون ، وليس كذلك ، وانما هى من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق · ولو كانت من أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة ، ولكان يستخلف فيها ، كما استخلف أبو بكر فى الصلاة ، ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة ابى بكر بقياسها على الصلاة في قولهم : « ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا ، أفلا نرضاه لدنيانا » دليل على أن الوصية لم تقع · ويدل ذلك أيضا على أن أمر الامامة والعهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم (١) ·

بعد أن أشار الاستاذ « كازانوفا » الى اجابة الشيعة عن هذا السؤال وذكر نص اجابة ابن خلدون عليه ، علق على ذلك بقوله :

« بقي علينا نحن الذين لسنا مسلمين ، والذين بناء على هذا ، لنا الحق فى أن ننظر الى محمد كرجل عبقرى عادى أن نوضح لماذا أهمل العناية بمسألة لها هذه الأهمية الكبرى ، فنعلن أن السبب فى اهمال أمر الخلافة بسيط وهو أن محمدا لم يفكر فى أنه سيموت وسيترك خلفاء من بعده ، بل اعتقد أن نهاية العالم قريبة ، وانه هو سيشاهدها ، وهذه العقيدة بقرب نهاية العالم مسيحية محضة ، ومحمد كان يقول عن نفسه: انه هو نبى آخر الزمان الذى أعلن المسيح انه سيجىء يتمم رسالته ! · »

« وهذه الفكرة كما كانت عند محمد كانت عند المسلمين الأولين · واذا كان المسلمون المتأخرون لم يحتملوا أن يستسيغوا هذه من نبيهم ، فانهم لم يقلوا عن أسلافهم فى الاحتفاظ فى هذا الشأن بكلام له اضطروا الى أن يلووا ويؤولوا معانيه » ·

وهذا هو البرهان الاول الذى ساقه « كازانوفا » ليؤيد به زعمه أن النبى كان يعتقد فناء العالم قبل موته ، وأن القرآن قد احتوى هذه العقيدة وان الصحابة قد تنبهوا الى هذه الورطة ، فمدوا أيديهم الى القرآن بالتغيير · ويتخلص هذا البرهان فى أن النبى لما كان مؤمنا تمام الايمان بأن العالم لن يستمر بعد وفاته ، وأن الساعة ستقوم قبل موته أو بعده مباشرة فقد أضرب تمام الاضراب عن تعيين من يخلفه على أمر المسلمين ، لأنه لن يكون بعده ــ فيما يعتقد ــ خلافة ولا خلفاء ، ولا مسلمون ولا كفار ، وان النبى لم يختر أبا بكر الا ليخلفه فى الصلاة فى أثناء مرضه ، وأن الصحابة لما رأوا أن الشمس تشرق وتغرب ، والعالم كما

---

(١) انظر صفحتى ١٧٠ ، ١٧١ من مقدمة ابن خلدون ·

هو ، والساعة لم تقم ـ أدركوا أنه لابد لهم من تلافي هذا الامر وألا تهدم صرح الاسلام ، فبادروا الى توطيد الحالة السياسية وبايعـــوا أبا بكر مسوغين بيعته باختيار النبى اياه اماما في الصلاة • ولما سئلوا كيف أن القرآن والنبى قد أهملا الرياسة السياسية ؟ أجابوا بأنهما قد أهملاها لصغر شأنها عن شأن امامة الصلاة التى اهتم بها النبى وعين لها أبا بكر، ولما كان التعيين للأعلى يقتضى بالأولوية التعيين للأدنى ـ فقد صح أن يكون أبو بكر اماما سياسيا ، كما كان اماما دينيا •

ونحن نعلن أن هذه الفكرة باطلة من أساسها ، وان ما تقدم اوما سيجيء من براهينها أو هى منها • وبما أننا لم نقـــدم من هذه البراهين الا برهانا واحدا فيجب أن نقصر عليه مناقشتنا فى هذا الفصل الى أن نسوق البراهين الاخرى فنناقش كلا منها على حدة • واليك مناقشة ذلك البرهان :

أسس « كازانوفا » هذا البرهان على أساس خيالى ، وهو ان النبى لم يعن بأمر الامامة السياسية ، فهل يساعد المنطق أو أسلوب البحث الحديث هذا الاستاذ على أن يجزم بأنه ليس هناك سبب حمل النبى على اهمال امر الامامة السياسية الا عقيدته بفناء العالم قبل وفاته ؟ وهل مجرد الفرض الخيالى يكفى فى نظر العلم الصحيح أن يكون دليلا ؟ ثم ألا يعلم هذا الاستاذ أنه يحتمل أن يكون هناك سبب آخر منع النبى من تعيين الامام السياسى غير عقيدته بفناء العالم ، اذ ان من أوليات قواعد « ارسطو » و « فرفريوس » المنطقية قولهما : ما تطرق اليه الاحتمـــال سقط به الاستدلال » •

على أننا نؤكد للأستاذ وأنصاره أن هناك سببا آخر غير عقيدة فناء العالم هو وحده الذى منع النبى عن هذا التعيين ، وان هذا السبب ليس فى درجة الاحتمال بل هو فى درجة اليقين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذى تؤيده الشواهد الناطقة والحوادث الجليـــة ، والتاريخ الصحيح والذى لا يستطيع أى واحد من أنصار « كازانوفا » أن يجادل فيه ، ذلك السبب هو ان النبى أعلن منذ الساعة الاولى لبعثته الى اللحظة الأخيرة من حياته انه رسول دينى ، وأن مهمته العليا فى هذه الحياة هى ارشاد الناس الى التوحيد والاستقامة ، أما الرياسة السياسية والقيادة الحربية ـ فهما ضرورتان من ضرورات الحياة احتملهمـــا النبى احتمالا ، لأنه لم يكن له منهما مفر ، واذن فهو لم يكن طاغية أو ديكتاتورا أو ملكا مطلقا حتى يعين ولى العهد من بعده ، ويفرضه على الأمة فرضا ،

كما كان ذلك متبعا فى الدول الأخرى ، وكما حدث فى الاسلام فيما بعد •

لهذا تصرف النبى فى الأمر الدينى الذى يملكه ، بل الذى هو مهمته الأساسية التى جاء من أجلها ، وترك الامامة السياسية لمن يعنيهم أمر دنياهم من بعده •

على انى لا أدرى كيف يتفق فرض الامام على الامة مع مبدأ الشورى الذى أمر القرآن به النبى أمرا صريحا ، فقال « وشاورهم فى الأمر » و « وأمرهم شورى بينهم » فلم يسعه الا الخضوع والطاعة لهذا الأمر ، وقد ظهر ذلك جليا يوم الخروج الى غزوة « أحد » حين رأى النبى عدم الخروج ، ورأى أصحابه الخروج ، فأذعن للكثرة راضيا مغتبطا وتركهم يخرجون ، بل خرج على رأسهم كأن الخروج كان رأيه الشخصى •

وليست هذه الحادثة هى الوحيدة التى ظهر النبى فيها بأجلى المظاهر الدستورية ، بل هناك عشرات الحوادث من هذا النوع يعرفها من له المام بالسيرة النبوية •

قد يعترض أنصار « كازانوفا » على هذا الاهمال بأن النبى عنى بما هو أقل شأنا فى مصالح الأمة من الخلافة ، مثل سياسة الأسرة ، فلم يكن من الطبيعى أن يعنى بالأقل ويهمل الأعظم ، ولكننا نجيبهم عن هذا الاعتراض المضحك بأن عناية القرآن والنبى بالأسرة تنحصر فى وضع القواعد المؤدية الى نظامها وسعادتها ، وهذه العناية لم تحرمها سياسة الحكم فى القرآن أو فى السنة ، بل كان لهذه السياسة من تلك العناية فيهما حظ عظيم ، اذ عنى القرآن وعنيت السنة بوضع قواعد : الشورى والعدالة والاعتدال والعفة والبشاشة ولين الجانب وكرم الخلق للملوك والحكام « وشاورهم فى الأمر » و « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » و « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » و « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » و « وانك لعلى خلق عظيم » •

كذلك عنيت السنة بايضاح أن مسئولية الحاكم مضاعفة ولو كانت رعيته من الحيوانات « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » و «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » •

واذن فقد وضع القرآن والسنة دستور الدولة ، ولكنهما لم يعينا الحاكم ولا نظام الحكم الذى يجب أن تسير عليه الأمة ، بل تركا هذا التعيين

لمن يهمهم الأمر من رجالاتها المسئولين ، فكأنهما أعلنا أن الأمة حرة فى اختيار النظام الذى يروقها والحاكم الذى تريده بشرط الا تكون الأهواء ولا الأغراض الخاصة ، ولا المصالح الشخصية هى التى تحمل الزعماء على اختيار نظام بعينه ، أو هى التى تدفع الملوك الى التكالب على الحكم أو تحول بينهم وبين تحقيق العدالة والعفة والتضحية بالمنافع الشخصية فى سبيل المنفعة العامة ·

فاذا رأى المسلمون أن هذه الشروط تتحقق فى أى نظام من أنظمة الحكم فليس عليهم أى أثم دينى فى أن يأخذوا به لأن الاسلام لا يجيز القسر والاضطهاد الا فى الأحوال التى لا مفر فيها منهما ، مثل حالات الفتن وفساد الانظمة الاجتماعية وغيبة الأمن وسيادة الفزع ، وهذه مبادىء لا تحط من قدر الاسلام ، بل على العكس هى تشرفه وترفع من شأنه فى نظر عقلاء الساسة والاجتماعيين ·

وبناء على هذا كله فان الذى منع النبى عن تعيين الامام هو روحه الدستورى المشبع بمبدأ الشورى ، واحترامه للعدل ، ويقينه بأن مهمته الأساسية دينية ، وعلمه بأن الأزمان متغيرة ، والظروف حائلة ، وانه لهذا يجب أن يترك أمر الناس الدنيوى فى أيديهم بعد أن يوضح مسئولياتهم ، وان ينذرهم بأن تصرفاتهم محسوبة عليهم ، وليست عقيدة فناء العالم عند موته هى التى منعته كما تخيل الاستاذ كازانوفا ·

الى هنا لم نزد على أننا أبطلنا سببية عقيدة فناء العالم لاهمال تعيين الامام السياسى ، واثبتنا أن السبب انما هو شىء آخر غير هذه العقيدة· أما وجود هذه العقيدة نفسها عند النبى فسنبرهن على بطلانه بالأدلة القاطعة فى الفصل الآتى ، فاذا فرغنا من ابطال هذا الدليل الاول « لكازانوفا » عرضنا لما اتى به بعد ذلك من أدلة فبسطناه وناقشناه حتى اذا انتهينا منه قذفنا به الى الدركة الجديرة به وبأمثاله من الآراء الباطلة ·

« كبوات أخر »

ذكر « كازانوفا » كثيرا من البراهين على دعواه ولما كنا لا نستطيع أن نستوعب هنا كل هذه البراهين ، لأن بعضها ينبو عن المنطق، وبعضها الآخر يعتمد على روايات اسطورية ، وأخبار خرافيـــة وردت فى كتب المسعودى ، والمقريزى والطبرى ، وما شاكل ذلك ـ فقد رأينا ان ننتقى من هذه البراهين أقواها فى نظر الباحثين ، ليكون هدمها آية واضحة على أن دعوى هذا الرجل واهية الدعائم والأركان • وأقوى هذه البراهين عند العلماء هو فى نظرنا ما اعتمـــد فى نظره على القرآن أو على حديث ثبتت صحته ولو أن هذا الاعتماد فى الغالب وهم ناشىء عن الجهل أو عن سوء الاستنتاج •

غير انه ينبغى لنا قبل الخوض مع هذا المستشرق فى مناقشـــة براهينه أن نسجل عليه أنه لم يفهم روح القرآن ، بل لم يفهم روح اللغة العربية فى أغلب الأحيان • وفوق ذلك فانه كثيرا ما يهجر النزاهة الى الأغراض والأهواء ، فيستخدم لغايته صدر جملة لو أنه أتمهـــا لألفى القارىء فى عجزها ردا مقحما على فكرته ، وهاتان الملاحظتان تدفعاننا الى الاحتياط من خطة هذا المستشرق فى البحث ، وتحملاننا على النظر الى نتائج بحوثه بعين الحذر المرتاب • ومهما يكن من الأمر فاننا سنتعقب أهم براهينه على هذه الدعوى لنثبت بطلانها أو ضآلتها فى ميزان البحوث العلمية •

قرر « كازانوفا » أن القرآن أشـــار فى عدة مواضع الى الساعة . اى الى نهاية العالم والبعث والحكم الآخير ، ولكنه لم يحدد لذلك زمنـــا معينا : « **يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمهـــا عند ربى**

لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل انما علمها عند الله ولكن أكثر النـــاس لا يعلمون (١) » .

ومع ذلك فان فى القرآن آيات عدة تتحدث فى وضوح عن قرب السـاعة : « اقتربت السـاعة وانشق القمر » (٢) و « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » (٣) ولكن هذه الآيات لا تشتمل على شيء من التحديد ، بل كل ما يمكن أن يستخلص منها هو شـعور بأنه يجب أن ننتظر هذه الساعة فى كل لحظة .

على أنه اذا كان القرآن قد اقتصر على اثبات قرب الساعة ، ولم يتعرض لتعيين وقتها ــ فان السنة تربط أضيق الربط وأحكمه بين بعثة النبى وقيـام الساعة . فمن ذلك مثلا : ما روى عن ابن عباس بمناسبة حديثه عن آية « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال : ان الله أوحى أولا آية « اقتربت الساعة » فقلق الكفار ، ولكنهم لما رأوا ان الساعة لم تقم عادوا الى اطمئنانهم ، فنزل قوله « اقترب للناس حسابهم » فرجع اليهم قلقهم ثم جحودهم ، فأنزل قوله تعالى « أتى أمر الله » فرفع الكفار رءوسهم فنزل قوله تعالى : « فلا تستعجلوه » . وبهذه المناسـبة قال النبى : « بينى وبين الساعة كما بين هاتين » وأشـار الى ما بين سـبابته ووسطاه (٤) » .

***

هذا الحديث هو عماد أول البراهين التى سنناقشها فى هذا الفصل وهو فى نظر « كازانوفا » من الأهميـة بموضع عظيم ، بل قد عده أحد المستندات الأساسية فى مهاجماته ، لأنه فى رأيه تصريح بأن بعثة النبى مرتبطة ارتباطا مباشرا بقيام الساعة وهو يؤيد هذا الرأى بتلك العبارة المضحكة : « ان تمثيل شيئين بأصبع اليد تعبير فى لغتنا الفرنسية يثبت أن بين هذين الشيئين علاقة ضيقة يمكن أن يعبر عنهـا بعدم قابلية الانفصال ، اذ أن هذا التعبير صورة منتزعة من أعماق الانسانية ، ومعناه واحد فى جميع لغات العـالم ، واذن فمن المحتمل ان لم يكن من المؤكد

---

(١) سورة الاعراف آية (١٨٧) .
(٢) سورة القمر آية (١) .
(٣) سورة النحل آية (١) .
(٤) انظر صفحة ١٦ من كتاب « محمد ونهاية العالم » ل « كازانوفا » .

ان محمدا أراد بهذا التعبير أن يقول : ان مجيئه والســــاعة غير قابلين للانفصال ! (١) .

ومما ضاعف أهمية هذا الحديث فى نظر « كازانوفا » هو أن اجماع المسلمين منعقد على صحته ، بل ان كثيرا من علمائهم استخلصوا منــه فروضا وعمليات حسابية أثبتوها فى كتبهم . فمن ذلك مثلا أن الطبرى ـ فيما يرويه ابن خلدون والمقريزى ـ أجرى فى مشكلة الساعة العملية الحسابية الآتية :

حيث أن القرآن قال : « وان يوما عند ربك كألف ســـنة ممـــا تعدون (٢) » وان النبى قال : « ان وجودكم بالنسبة الى وجود من سبقوكم، كما بين العصر وغروب الشمس » وقال أيضا : « اننى بعثت فى زمن كنت أنا والساعة كهاتين » وأشار الى سبابته ووسطاه وقال كذلك : « ان بقاء هذا العالم أسبوع من العالم الآخر الذى يومه ألف سنة » .

ولما كان ما بين العصر وغروب الشمس جزءا من أربعة عشر جزءا من اليوم ، ولما كانت الوسطى تزيد على السبابة بجزء من أربعة عشر جزءا من الاصبع ، ولما كان عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ـ فقد وجب أن يكون ما بين النبى والساعة جزءا من أربعة عشر جزءا من عمر الدنيـــــا وهو خمسمائة سنة . غير أن السهيلى الذى عاش الى ما بعد سنة خمسمائة وثلاثين للهجرة قد اقتنع بأن حساب الطبرى غير صحيح ، وقرر أن هذا الحديث لا يفيد الا قرب الساعة .

هذا هو موجز ذلك البرهان الذى ساقه الاستاذ « كازافونا » فى طليعة براهينه على دعواه الغريبة .

ولكى نكون منطقيين فى نقاشنا ينبغى لنا ان نسترعى نظره الى أن استدلاله على جزم النبى العربى بعدم قابليته انفصـــــال بعثته من الساعة ، بما يراد من هذا التعبير فى لغة « كازانوفا » الفرنسية ـ ضرب من الهراء المخجل الذى لا يليق بصغار المتعلمين ، فضـــــلا عن العلمـاء والباحثين ، اذ من الذى لا يخجل من أن ينسب اليه التاريخ أنه فسر عبارة فى لغة شرقية سامية ـ بما يراد بمثلها فى لغة غربية لاتينيـــة ؟ ومن الذى يجرؤ على الادعاء بأن روحى اللغتين متماثلتان أو متقاربتان ؟ وما يدرى « كازانوفا » ان هذه العبارة عامة منتزعة من الانسانية كما

---

(١) انظر صفحة ١٧ من المصدر نفسه .
(٢) سورة الحج آية ٤٧ .

زعم ؟ أفلا يمكن أن يكون معناها في اللغة الفرنسية عدم قابلية الانفصال وان تكون في اللغة العربية مجرد تصوير للقرب ، أو محض تشبيه يفيد القرب وقصر المسافة التي تفصل بين بعثة النبي والساعة ؟ الحق ان موقف هذا المستشرق بازاء هذه العبارة ضعيف مزر لا يليق بالباحثين الذين يحترمون أنفسهم ٠

على أننا اذا أغضينا عن هذه السقطة وغفرنا له فهمه اتصال البعثة المحمدية بالساعة مباشرة وعاملناه معاملة من فهم مجرد القرب بينهما، ثم نظرنا الى اعتراضه على هذا القرب ألفيناه في نظر علماء الفلك ضعيفا واهيا ، والفينا قول النبي مؤيدا بأحدث آراء العلماء المعاصرين ، لان اجماع أولئك العلماء منعقد الآن على أن ما بقي من عصر الدنيا الى جانب ما مضى منها يشبه حقا ما تزيد به الوسطى عن السبابة ، وأن هذه الأربعة عشر قرنا التي فصلت بعثة نبي المسلمين عن العصر الحاضر لاتكاد تعد الا جزءا ضئيلا من عمر الكون لا يتعارض مع الاخبار باقتراب نهايته قبل مرورها لان العمدة في تقدير هذا الاقتراب انما هو نسبة ما بقي الى ما مضى ٠

وأكثر من ذلك أن أحد كبار علماء الفلك الغربيين قرر منذ أعوام في محاضرة عامة ألقاها في جامعة السربون أنه اذا أريد أن يقاس مابقي من عمر الكواكب ، أو من عمر الكون بما مضى من السنين ــ وجب أن يقدر ما مضى بعدد كمية من طوابع البريد صف بعضها فوق بعض من سطح الارض الى قمة جبال الهملايا ، وان يقدر ما بقي منه بكمية تساوي ارتفاع احدى المنارات البحرية !

ونحن نحسب أن الاســـــتاذ « كازانوفا » يوافقنا على أن ما بين الوسطى والسبابة من فرق لا يقل عما بين المنارة وجبال الهملايا من هذا الفرق ! كما انه يوافقنا على ان آلاف السنين الى جانب الملايين ضئيلة الى حد أن تصح الاشارة اليها باصبع اليد ٠ واننا نحسب انه لا يخالفنا في أن نسبة الثانية الى الدقيقة هي بعينها نسبة المليون الى الستين مليونا من السنين أو من القرون ٠ وانه مادامت موازنة نبي المسلمين كانت تتعلق بنسبة ما بقي من عمر الدنيا الى ما مضى منه فانه ليس له أن يعترض اعتراضا علميا على هذا الحديث الذي يصرح بقرب الساعة ٠

وليس أدل على مانقول من وصف هذا النبي أمته بأنها في وسط ما مضى من الخلائق كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ٠ فاذا استطاع

« كازانوفا » أن يحصى شعر ثور وأن يجعل ملايين المسلمين جميعا وحدة واحدة من عدد شعر هذا الثور ، فيجعل الأمم السابقة بقدر مابقى من الشعر مضروبا فى عدد ملايين المسلمين ـ أمكنه أن يصل الى احصاء عددى يتكافأ مع الاحصاء الزمنى الذى أخبر نبى المسلمين عنه بأن ما بقى منه الى جانب مامضى يشبه ماتزيد به الوسطى على السبابة .

أما تلك العملية الحسابية التى أجراها الطبرى فهى سخيفة مضحكة ليس الاسلام مسئولا عنها ولا مؤاخذا بها ، لأن الاسلام مسئول عما ورد فى كتابه وماثبتت صحته من أحاديث نبيه ، وليس الاسلام مسئولا عن آراء كل من هب ودب من معتنقيه وأنصاره !

أما قول القرآن « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » فهو تشبيه أريد به أنه يتم فى اليوم الواحد بالقدرة الالهية مالا يتم من أفعال العباد فى ألف سنة من سنى دنياهم . وأما الحديث الآخر الذى استغله الطبرى فى عمليته الحسابية وهو قول النبى ـ « أن مابقى من عمر الدنيا كما بين العصر وغروب الشمس ـ فهو اذا صح تشبيه بديع يشبه تشبيه السبابة بالوسطى الذى ورد فى الحديث الأول ، وهو كسالفه لا يتعارض مع الآراء العصرية فى تقدير أعمار الأفلاك .

استشهد « كازانوفا » على دعواه هذه ببرهان ثان ، ورد كسالفه فى السنة فيما يزعم ، وهو أن النبى كان يعتقد أن المسيخ الدجال الذى لاشك فى شهوده نهاية العالم كان معاصرا له . وآية ذلك أنه أشار الى ابن سعيد اليهودى بقوله « هذا هو المسيخ الدجال ! » وأن تميما الدارى حدث النبى أنه كان مسافرا فوق البحر مع عدد من بنى عمه ، فألقت بهم عاصفة على احدى الجزر فرأوا فيها حيوانا هائلا مغطى بشعر طويل ، فسألوه عن شخصيته ، فأجابهم الحيوان بأنه الجساسة التى ستظهر فى آخر الزمان ، ثم قالت لهم : « احذروا سيد القصر ، فنظروا فرأوا رجلا مكبلا بسلاسل من حديد مربوطة فى عمود من حديد ، ومن أوصافه كذا وكذا ثم حدثهم فأنبأهم بأنه المسيخ الدجال وأنبأهم بوقوع عدد من الملاحم ، ثم أعلن أنه لن يدخل مدينة النبى .

بعد أن ذكر الاستاذ « كازانوفا » هاتين الروايتين علق عليهما بقوله : « من هذا يتضح أن محمدا كان يعتقد أنه سيشهد نهاية العالم .

لاريب أن هذا البرهان أضعف من سالفه ، لأنه يعتمد على روايتين : أما أولاهما وهى اطلاق النبى اسم المسيخ الدجال على ابن سعيد الاسرائيلى،

فاذا صحت هذه الرواية ، فان مافيها لا يخرج عن كونه ذما لهذا الاسرائيلى واهانة له من النبى باطلاق اسم المسيخ الدجـال عليه كما يقال : هذا شيطان وهذا وحش ، وهلم جرا ولا يعقل أن يكون هذا الاطلاق حقيقيا على ظاهره حتى يستند الاستاذ « كازانوفا » اليه فى اثبات نظرية علمية، اللهم الا أن يكون هذا الاستاذ كالغريق الذى يتعلق بالقش أملا فى أن ينجو من الغرق !

أما الرواية الأخرى فقد نقلهـــا ، « كازانوفا » عن مروج الذهب للمسعودى ، واذن فهى ضـــمن ما أشرنا اليه فى أول هذا الفصل من الروايات الخرافية التى صرحنا بأننا لن نقيم لها وزنا لسقوط قيمتها فى نظر البحث الصحيح الذى لا يعتمد الا على اليقينات ٠

يعد هذا البرهان الرابع أهم براهين « كازانوفا » وأخطرها فى نظره ونظر أشياعه ، لأنه حاول فيه أن يثبت أن فى القرآن كما فى السنة آثارا تشهد بأن الصلة بين بعثة النبى والساعة متينة وثيقة ، وأن موت النبى سيكون ضمن الموت العام الذى هو نتيجة مباشرة للطامة الكبرى ، وهى قيام الساعة ٠ واليك كيف يسوق هذه الحجة قال :

أشار القرآن فى كثير من آياته الى نهاية العالم والموت العام فقال :

« ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون » (١) ٠

و « كل نفس ذائقة الموت . وانما توفون أجوركم يوم القيامة » (٢)

و « كل نفس ذائقـــة الموت ، ونبلوكم بالشر والخـير فتنة والينا ترجعون » (٣) ٠

و « يوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين » (٤) ٠

و « كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون » (٥) ٠

---

(١) سورة الزمر آية ٦٨ ٠
(٢) سورة آل عمران آية ١٨٥ ٠
(٣) سورة الانبياء آية ٣٥ ٠
(٤) سورة النمل آية ٨٧ ٠
(٥) سورة العنكبوت آية ٥٧ ٠

مما لاريب فيه أنه لا يمكن تطبيق الآيتين الأولى والثالثة الا على الفريق الأخير من الناس ، وهم المعاصرون لقيام الســـاعة ، أما الآيات الباقيات فقد أتى بها لاثبات تعميم الموت وحلوله بكل حى ، ماضيا كان أو حاضرا ، ولكن ينبغى أن نعرف أن جميع الآيات التى تعرضت لفناء العالم أو لعمومية الموت ربطت بينهما وبين البعث ربطا محكما ، أى أن هذه الآيات أعلنت أن البعث لابد أن يتلو الموت العام مباشرة ، فلندرس الآن الآيات المتعلقة بموت النبى فى ضوء هذه القاعدة :

قال القرآن « انك ميت وانهم ميتون • ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون (١) » •

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفان مت فهم الخالدون ؟ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » •

فاذا نظرنا الى هذه الآيات ألفينا أنها تصـــل البعث بموت محمد ، كما وصلت الآيات السابقة البعث بالموت العام وفناء العالم •

ويقول كازانوفا : على أن حقيقيتين اثنتين من هذه الآيات مشــكوك فيهـــا اذ لم تثبت نســبتها الى النطق النبوى ، بل ان أبا بكر كان هو الوحيد الذى نطق بهما على أثر موت النبى فأقره المسلمون عليهما ، وهما قول القرآن : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم (٢) » • وقوله : « انك ميت وانهم ميتون (٣) » أفليس لنا الحق فى أن نظن أن الآية « الثانية » على الأقل قد صنعها أبو بكر من أساسها بعد موت النبى ؟ •

مهما يكن من شىء فان هاتين الآيتين حقيقيتين كانتا أم مصنوعتين ، اذ فهمتا ، كما أراد أبو بكر أن يوجههما تنصان على ان النبى يجب الا يشهد الساعة ومع ذلك فيمكن أن نفهم الآية الأولى على انها خطابية تريد أن تقرر القاعدة المنطقية فى ذاتها أى تريد أن تتساءل نظريا قائلة : أفان مات فرضا أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ وفى هذه الحالة لا تقرر أنه سيموت قبل نهاية العالم ، ويمكن أن نفهم الآية « الثانية » على أن الاختصام عند الله تابع مباشرة لموت النبى ومعاصريه • وفى هذه الحالة يكون شهوده الساعة أمرا محققا •

---

(١) سورة الزمر آية ٣٠ ، ٣١ •
(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤ •
(٣) سورة الزمر آية ٣٠ •

اما اذا فهمنا حرا غير مفيد أليته لا بتوجيه ابى بكر ولا بتوجيهنا الذى أسلفناه آنفا ، بل أخذنا على ظاهرهما ـ فانهما لا تثبتان ضرورة أن محمدا يجب أن يموت قبل قيام الساعة ، فاذا أضفنا الى غيبة ضرورة موت النبى قبل قيام الساعة نصوصا قرآنية أخرى تفيد امكان بقائه حيا الى يوم الساعة ، ونصوصا أخرى محتوية على وعود تتفاوت تحجبا وانكشافا صدرت من الله الى نبيه بأنه سيشهد الساعة أقول : اذا أضفنا هذه النصوص الى ماتقدم فقد رجب أن تكون دعوانا صحيحة ٠ وأهم هذه النصوص هى النصوص التى تقول مخاطبة النبى :

« واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون » (١) و « واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (٢) و « فاصبر ان وعد الله حق ، فاما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون » (٣) ٠

فاذا اعترض بأن هذه النصوص ليست مشتملة على وعود صريحة بشهود النبى الساعة وانما هى مشتملة على الامكان فحسب ٠ قلت نعم ، هذا حق ، ولكنه ينتهى بنا الى الاقرار بأنه غير متيقن من الغاية ولم يستطع أن يحدد مصير نبيه ونحن نحسب أنه شىء يظهر لنا أكثر سخفا وبعدا عن التعقل من القول بأن هذا الاله ـ وهو سيد الأقدار ـ لم يستطع أن يصمم على أن يحدد مسألة بسيطة الى هذه الدرجة ، أو أنه يجهل : هل النبى سيموت أو سيعيش الى نهاية العالم فى حين أنه يقول : انه يعلم بالساعة علما يقينيا ولكنه لا يريد أن ينبىء الناس بهذا العلم !

وبناء على ذلك أفليس من المعقول أن نقرر أن هذه الآيات قد مدت اليها يد التبديل وأنها كانت قبل التبديل مثلا : سنريك بعض الذى نعدهم أى أنها كانت نصا صريحا فى شهود النبى الساعة ، ثم لما رأى أصحابه أن الساعة لم تقم لم وضعوا صورة الشك فى هذه الآيات موضع صورة اليقين ، وجعلوها : « واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك » غير أن هذا التحوير الذى أوقعوه فى الآيات السالفة لم يكن من السهل عليهم اجراؤه فى بعض الآيات الأخرى لتأليفها كلا متماسكا أوله بآخره تماسكا

---

(١) سورة يونس آية ٤٦ ٠

(٢) سورة الرعد آية ٤٠ ٠

(٣) سورة غافر آية ٧٧ ٠

محكما الى حد أنه لو وضعت فيه صورة التردد لانقلب هذا الكل المنسجم مشوها مضحكا ·

لهذا أبقوا تلك الآيات الأخرى على حالها ولم يحدثوا فيها أى تغيير فجاءت شاهدة على أن محمدا كان يعتقد بقاءه الى شهود الساعة من جهة ، وعلى أن الآيات الأخرى وقع فيها تبديل من جهة ثانية · واليك تلك الآيات التى لم يمكن التبديل فيها :

« وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما الا بالحق ، وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ، ان ربك هو الخلاق العليم · ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم · لا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم ، ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين وقل انى أنا النذير المبين ، كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين ، فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين · انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ،ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (١) » ·

لاريب فى أن اليقين هنا هو الساعة ، وأن المفسرين يوآفقون على ذلك ، واذن فالقرآن صريح فى أن الساعة ستأتى النبى ، وسيشاهدها هو شخصيا ، ولذلك هو يأمره بأن يعبد ربه حتى تأتيه هذه الساعة ، ومما يؤيد ذلك أن الفعل العربى الذى عبرت به الآية الخامسة والثمانون فى جانب الساعة عبرت به الآية التاسعة والتسعون فى جانب اليقين فقالت الأولى : ان الساعة آتية · وقالت « الثانية » حتى يأتيك اليقين ·

ومن هذه الآيات التى لم يقع فيها النبديل وهى تنص على أن النبى سيشهد الساعة ، قول القرآن : « فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » (٢) و « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج » (٣) و « يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (٤) »

---

(١) أنظر آية ٨٥ ومابعدها الى آخر سورة الحجر ·

(٢) آية ٣٩ (ق) ·

(٣) آيتا ٤١ ، ٤٢ من (ق) ·

(٤) آية ٤٤ من (ق) ·

أما استنتاجنا الخاص بعد كل ذلك فهو يتلخص فى أن القسم الأول من القرآن كان بكل بساطة أنباء صريحة بنهاية العالم وقرب الساعة :

« عم يتساءلون عن النبأ العظيم • الذى هم فيه مختلفون • كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون » (١) •

وان القسم الثانى منه عنى بأن يضعها موضع الأمر المجهول : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السماوات والارض لا تأتيكم الا بغتة (٢) » •

وان القسم الثالث الذى كان النبى فى أثنائه مشغولا بالتشريع والقيادة الحربية قد أهمل مسألة الساعة اهمالا تاما ، وكانت الأقسام الثلاثة متمايزا بعضها عن بعض فى وضوح فمزجها أصحاب النبى بعضها ببعض الغايات فى نفوسهم ، وان كل الآيات التى نصت على شهود النبى الساعة وأمكن تبديلها وقد بدلت ، وما لم يمكن تبديله قد وجهوه التوجيه الذى أرادوه •

***

هذا هو موجز أهم براهين « كازانوفا » على هذه الدعوى بعد الذى قدمناه فلنلخص أولا نقطه ثم نناقشها واحدة بعد الأخرى » •

١ ــ زعمه أن صلة البعث بموت النبى كصلته بالموت العام •

٢ ــ ارتيابه فى آيتى «انك ميت » « أفان مات أو قتل » •

٣ ــ زعمه أن المقصود بقول القرآن « بعض الذى نعدهم » هو الساعة •

٤ ــ ادعاؤه أن هذه الآيات كان نصها أولا : « سنريك بعض الذى نعدهم ، ثم قلبت الى صورة التشكيك فأصبحت فاما نرينك الخ » وقد علل لهذا الزعم بأن الله أعظم من أن يجهل المصير فيتحدث بلسان الشك •

٥ ــ زعمه أنه وردت فى القرآن آيات صريحة فى وجوب شهود النبى الساعة كقول القرآن مثلا : « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب ••• الخ » •

٦ ــ زعمه أن كلمة « اليقين » المذكورة فى القرآن معناها الساعة ،

---

(١) انظر الآيات الخمس من سورة النبأ .

(٢) انظر آية ١٨٧ وما بعدها من سورة الاعراف .

وبهذا يكون قـــوله « حتى يأتيك اليقين » معنـــاها حتى تأتيك الساعة ·

هذا هو موجز نقط أهم براهينه ، فلننظر الآن الى أى حد هي متفقة مع التعقل ·

ادعى الاستاذ « كازانوفا » أن البعث ورد فى القرآن متصلا بموت النبى إتصاله بالموت العام · وغايته من هذا هى محاولة اثبات أن البعث سيبدأ بعد وفاة النبى مباشرة ، فاذا نظرنا الى الآيتين اللتين ساقهما فى موت النبى لم نجد فيهما البته مايؤيد دعواه أقل تأييد · وذلك لأن الآية الأولى وهي .

« انك ميت وانهم ميتـــون ، ثم انكم يوم القيـــامة عنـــد ربكم تختصمون » معناها انك فان قابل للموت ، وهم كذلك فانون قابلون له وانكم ستموتون جميعا ، كل بأجله ثم انكم سوف تبعثون وتختصمون أمام ذى الجلال والاكرام ·

والآية نص صريح ببعد زمن الاختصام عن زمن الموت بدليل التعبير بثم · ولو أن الاستاذ « كازانوفا » كان يفهم الفرق بين حروف العطف فى اللغة العربية ما جرؤ على أن يزعم هذا الزعم ، ولكن هذا ذنب الجهل لحاه الله ·

وفوق ذلك فقد وضعت الآية يوم القيامة كظرف للاختصام ، ولما كان الاختصام معطوفا على الموت بحرف ثم ، ومن ثم بعيدا عنه فقد وجب أن يكون ظرف الحدث المتأخر متأخرا عن ظرف الحدث المتقدم بالزمن الذى يسمح به حرف ثم ، وفى هذا برهان قاطع على أن البعث ليس متصلا بموت النبى اتصالا مباشرا كما زعم هذا المستشرق ·

أما الآية الثانية وهى « أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ، فلا شأن لها بنهاية العالم ، ولا باتصال موت النبى بالبعث أو بانفصاله عنه ، وانما هى وردت لتأنيب المقاتلين الذين تزعزعت نفوسهم حين أذاع أبو سفيان أن النبى قد قتل · ولا أدرى ما الصلة التى تخيلها «كازانوفا» فى هذه الآية بين موت النبى ونهاية العالم الا أن يكون من الحالمين ؟ ·

على أنى لا أدرى كيف يستشهد بهاتين الآيتين على هذه الصلة ، وهو قد أعلن ارتيابه فيهما وعزا وضعهما الى أبى بكر ، وهنا تقودنا المناسبة

الى مناقشة النقطة الثانية وهى أن أبا بكر هو الذى صنع هاتين الآيتين فنقول لهذا الاستاذ :

ألم تعترف أنت شخصيا فى مقدمة كتابك بأن النبى كان أعظم أهل عصره اخلاصا وأطهرهم نفسا ، وأقواهم عبقرية ؟

ثم ألم تشهد بأنه هو الذى أطلق على أبى بكر اسم الصديق ؟

ثم أفلا يكون اطلاقه اسم الصديق على رجل جدير بالتضليل برهانا اما على الغباوة ، واما على النفاق ؟ وأنت أثبت له العبقرية والاخلاص وطهر النفس ؟ هذا خلف يا أستاذ !!

وفوق ذلك فهل شارك كل أجلاء الصحابة أبا بكر فى هذا التزييف، أو كانوا جميعا من الغفلة بحيث تنطلى عليهم هذه الحيلة ، ونحن نعلم أنه كانت بينهم عقليات تلتهب ذكاء وعبقرية ؟

ثم ألم يكن للاسلام خصـــوم طالما سمعوا من النبى أنه سيشهد الساعة ، ثم ألفوه قد فارق الحياة ولم تقم الســاعة ؟ فهل تظن أن هؤلاء الخصوم كانوا يقابلون هذه الفرصة القاتلة صامتين دون أن يشنوا الغارة على الاسلام والمسلمين ؟

أضف الى هذا أنه ان كان أبو بكر قد وضع هاتين الآيتين ، فمن الذى وضع الآيات والأحاديث الكثيرة التى تنص على أن الساعة سر قد استأثر الله بعلمه وأن موت النبى سيكون حدثا بسيطا ضمن أحداث الكون العام ، كما كان موت من بسبقوه من الأنبياء ، وأن الحياة ستظل من بعده زمنا لا يعلم مداه الا الله ، وأن الساعة سيكون لها علامات ، وأن الذين سيشهدونها أقل الناس ايمانا ؟ وهل وضع أبو بكر هذا كله دون أن يتنبه اليه أحد ؟

اللهم أشهد ان المنطق ليس له فى هذه الدعوى عين ولا أثر .

أما زعمه أن « بعض الذى نعدهم » معناها الساعة ــ فهو زعم سخيف لأن المقصود بهذا البعض هو مصارع المكابرين يوم غزوة بدر وما هددوا به من عذاب ، وليس المراد هنا الساعة كما توهم الاستاذ « كازانوفا » واذن فقد سقط هذا الزعم أيضا .

أما ادعاؤه أن هذه الآيات كانت أول الأمر : « سنريك بعض الذى نعدهم » ثم غيرت فجعلت : « واما نرينك الى آخره » فهو تخرص ليس لدى

صاحبه عليه من دليل الا أن الله أعظم من أن يجهل المصير فيعبر بعبارة الارتياب ·

ولو أن هذا المستشرق كان قد فهم روح القرآن ، ماهوى فى تفكيره الى هذا الحد ، « لأن هذه عبارات تشكيك لا عبارات شك · والفرق بين الحالتين عظيم ، ولكن هذه أيضا سقطة الجهل والسطحية والتسرع · أما حكمة استعمال هذا التشكيك فهى استئثار الله بعلم يوم وفاة النبى ، وهل هو سيجىء قبل مصارع أولئك المعاندين أو سيتأخر عنها ؟ وهو فى كلتا الحالتين يبشر نبيه قائلا : « كن على يقين أنى سأريك مصارعهم اذا أبقيتك الى ذلك اليوم ، واذا توفيتك قبله فسأريك فى الآخرة ما أصنع بهم ، فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ·

على أنى لا أفهم أيضا كيف استساغ « كازانوفا » استئثار الله بعلمه الساعة واخفاءه اياها عن الناس جميعا ولم يستسغ اخفاءه عنهم مصير أولئك المعاندين ؟ وهل ستكون مصارعهم على مشهد من النبى أو سيتوفى قبل وقوعها فيرى مصيرهم الأخروى الذى هو أدهى وأمر ؟ ·

أما ادعاؤه أن آية « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب » تدل على شهود النبى الساعة وأن المنادى سينادى يوم فناء العالم فهو ضرب من السخف المزرى ، لأن المنادى المذكور فى هذه الآية هو الذى سينادى يوم الحشر لا يوم فناء العالم ، بدليل ما أتى بعد هذه الآية من قول القرآن : « ذلك يوم الخروج يوم تشقق الارض عنهم سراعا ، ذلك حشر علينا يسير » ·

ولكن يظهر أن الاستاذ « كازانوفا » لا يعرف كيف يفرق بين يوم فناء العالم وهو آخر أيام الدنيا ، ويوم البعث وهو أجنبى عن الأول أجنبية لا تخفى على ذى عقل ·

أما شهود النبى يوم الحشر ، واستماعه نداء المنادى فهما أمران لا ينكرهما المسلمون ، بل يجب ألا ينازع فيهما أحد ، وآلا كان جاحدا شهود النبى الحساب الذى لا يمكن أن يتخلف عنه أحد ، كائنا من كان عظمة أو ضعة ·

أما ادعاؤه أن كلمة « اليقين » الواردة فى القـــرآن معناها الساعة واستدلاله على ذلك باستعمال مادة الاتيان فى جانب الساعة حينا ، وفى جانب اليقين حينا آخر ـ فهو أمر جدير بالاشفاق على هذا الاستاذ أكثر مما هو جدير بالنقد ، لأن اليقين معناه الموت ، وليس معناه الساعة ،

ولا يصح أن يكون ذلك ، اذ أن اليقين الوحيد الذى يجب أن يمر بكل جي انما هو الموت لا الساعة ، لأن الساعة لا تقوم الا على معاصريها . وبهذا لا يكون الأمر بالعبـــادة عاما ، بل يكون خاصـــا مقصـــورا على أولئك المعاصرين .

أما استشهاده بمادة أتى ، فحسبنا أن نقول له بازائه : انه يقال فى اللغة الفرنسية : اتت الكارثة وأتى « كازانوفا » فهل يصح لنا بناء على هذا أن نقول : ان «كازانوفا» « هو الكارثة » بدليل صحة اسناد فعل أتى اليه والى الكارثة ، كما كان اليقين فى القرآن معناه الساعة بدليل صحة اسناد فعل أتى الى اليقين والى الساعة ؟

أما بعد مناقشة هذه النقط الواردة فى براهين « كازانوفا » فاننا نحب أن نسأله سؤالا لا تتعذر الاجابة عنه حتى على عقلية السوقة والأميين وهو :

اذا كان النبى يعتقد قيام الساعة قبل وفاته فلماذا نظر الى الحياة الاجتماعية هذه النظرة التى تدل على بقائها زمنا طويلا ، فأتى لها بهذا الدستور الفخم وذلك التشريع القيم الذى تناول به جميع أفرع الحيـــاة الشخصية والمعاملات الاجتماعية من : زواج وطلاق وعدة ، ونفقة ورضاع وتوريث ووصية وهبة وبيع ، وقرض ، ومشاركة ؟

فهل ذلك كله قد شرع لمعاصرى النبى فقط ؟ واذا كان ذلك كذلك فهل يوصف بالحكمة والعبقرية اللتين وصفت أنت بهما النبى من يتعب نفسه من أجل التشريع لهذا الزمن الضئيل .

حدثنى بربك : كم وقع من المواريث فى تلك الأعوام التى مرت بعد تشريع الميراث الاسلامى وقبل موت النبى ؟ ولماذا لم يترك النبى قومه يتعاملون ويتوارثون على حسب تشريعاتهم القديمة مادامت الساعة ستقوم عليهم قبل انتقاله من بينهم ؟

هذا كلام له خبيء　　　　معناه ليست لنا عقول

هذا ، ونأمل أن نكون قد وفقنا للرد على أهم النقط الأساسية فى هذا الكتاب « محمد ونهاية العالم » ذلك الكتاب السخيف الذى أحدث رنينا هائلا فى البيئات العلمية فى أوروبا ، لأنه كان الأول من نوعه ، ولأنه لم ينبر الى الآن أحد من المسلمين للرد عليه بحجج قيمة « ولاسيما أنه ترجم الى احدى عشرة لغة ، وانه قد عرف لدى مئات الألوف من

القراء ، وحمل الضعفاء منهم على فهم الاسلام كما رسمه لهم « كازانوفا » ودفعهم الى النظر اليه على تلك الصورة المشوهة التي قدمها اليهم عنه ، والتي ان لم تقم صفوة المسلمين بتصحيحها فان نتائجها ستكون من الخطورة بموضع لا يستهان به ٠

ومن هذا كله يبين جليا أن الرد على هذه الآراء في مقدمة الواجبات الاسلامية ، وأن القول بأن اثارة هذه العاصفة ايقاظ للفتنة قول أخرق فيه من الحمق والرعونة مافيه ، لأن عدم اثارة هذه العاصفة بين قراء العربية لا يمنع من اثارتها بين أهل احدى عشرة لغة التي ترجم اليها هذا الكتاب، واذن فالقائلون بهذا الرأى أشبه شيء بالنعامة الحمقاء التي أشرنا اليها آنفا ٠

فليتنبه المسلمون الى مافي هذا الرأى من ضعف وتخاذل واستكانة وتحلل ، وليعلموا أن دينهم دين قوة وصلابة ومجابهة للحقائق أيا كانت صورها ونتائجها ، وليفطنوا الى أن هذا الاستخذاء ليس من روح الاسلام في شيء ، وانما هو دخيل عليه من ضعفاء النفوس الذين لا تعنيهم الا الوصولية المغرضة التي يعرف التاريخ أن أساسها الجبن والانحناء ، ودعامتها التسليم والانزواء ، ونهايتها التلاشي والفناء ٠

فليعلم كازانوفا وغيره ممن هم على شاكلته أن في السويداء رجالا ، وأن الاسلام كالطود الاشم ، وأنهم ـ مهما نحلوا من الاباطيل ـ لن ينالوا منه شيئا ، بل انهم واياه حينئذ كما يقول الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

الفهرس

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة